نساء لهن تاريخ

نَماذِجُ إيمَانيَّةٌ .. نَمَاذِجُ تُراثِيَّةٌ .. نَمَاذِجُ حَدِيثَةٌ

تأليف
أشرف أبو جليل

رسوم
أحمـد بيـومي

الدار النموذجية للطباعة والنشر
صيدا - بيروت



شركة أبناء شريف الأنصاري
للطباعة والنشر والتوزيع
صيدا - بيروت - لبنان

• المكتبة العصرية
الخندق الغميق ـ ص.ب: 11/558
تلفاكس: 655015 - 632673 - 659875 1 00961
بيروت ـ لبنان

• الدار النموذجية
بوليفار د. نزيه البزري ـ ص.ب: 221
تلفاكس: 720624 - 729259 - 729261 7 00961
بيروت ـ لبنان

• المطبعة العصرية
كفر جرة - طريق عام صيدا جزين
07 230195 - 230841 7 00961
تلفاكس: 655015 - 632673 - 659875 1 00961
صيدا ـ لبنان

الطبعة الأولى
1436 هـ - 2015

E. Mail alassrya@terra.net.lb
alassrya@cyberia.net.lb
info@alassrya.com

موقعنا على الإنترنت
www.almaktaba-alassrya.com

المحتويات

مُقَدِّمَة 6

نَماذِجُ إيمانِيَّةٌ

آسِيَا بِنْتُ مُزاحِم 8
«أَيارْخا» الصَّابِرَةُ 12
مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ 16
خَديجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِد 20
عَائِشَةُ بِنْتُ أَبِي بَكْر 24
أُمُّ سَلَمَةَ 28
نَسِيبَةُ بِنْتُ كَعْب 32
أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْر 36
حَليمَةُ السَّعْدِيَّةُ 40
خَوْلَةُ بِنْتُ الأَزْوَر 44
رَابِعَةُ الْعَدَوِيَّةُ 48

نَماذِجُ تُراثِيَّةٌ

إِياح حُتُب 52
حَتْشِبْسُوت 56
نِفِرْتِيتي 60
بِلْقِيسُ 64
زَرْقَاءُ الْيَمَامَةِ 68
هِنْدُ بِنْتُ النُّعْمَان 72
الْخَنْسَاءُ 76
شَجَرَةُ الدُّرِّ 80
زِنُوبِيَا 84

نَماذِجُ حَديثَةٌ

مَلَك حِفْني نَاصِف 88
عَائِشَةُ التَّيْمُورِيَّةُ 92
عَائِشَةُ عَبْدُ الرَّحْمَن 96
صَفِيَّةُ زَغْلُول 100
سَمِيرَةُ مُوسَى 104
سَهِيرُ الْقَلَمَاوِي 108
أُمُّ كُلْثُوم 112
أَمِينَة رِزْق 116
جَمِيلَةُ بُوحْرِيد 120
سَنَاءُ مِحيدْلي 124
أَسْئِلَةٌ عَامَّةٌ عَلَى الْكِتَابِ 126

مُقدِّمة

عِنْدَمَا نُقدِّمُ سِيرةَ ثَلاثينَ سَيِّدة لأبْنائنَا وبَنَاتِنَا، فإِنَّنَا نَقْصِدُ مِنْ وَراءِ ذَلِكَ عِدَّةَ أَهْدَافٍ نَتَمَنَّى تَحْقيقَهَا: أَوَّلُها أَنَّنَا اخترْنا هَذِهِ الشَّخْصِيَّاتِ ـ وَإنْ كَانت شَخْصِيَّاتٍ راحلةً ـ لأَنَّ أَعْمَالَها باقيةٌ لا تُنْسَى، وعِنْدَمَا نُذَكِّرُ أبناءَنَا بِهَذِهِ الأعمالِ، فإنَّنا نَقْصِدُ أنْ يربطَ الأبناءُ بين الحاضِرِ والماضِي، ويَتَّخِذُوا مِنْ هَؤُلاءِ السَّيِّداتِ قُدْوَةً لَهُمْ. ثُمَّ إننا نَقْصِدُ رَدَّ الاعْتِبارِ للمَرْأَةِ العربيَّةِ الَّتِي صَنعَتِ الأَحْداثَ الْكُبْرَى في عَالَمِنا، ووَقَفَتْ مَعَ الرَّجُلِ ضِدَّ كُلِّ مُعْتَدٍ، وَشَارَكَتْ في رُقِيِّ وتَطَوُّرِ مُجْتَمَعِها دينيًّا وحضارِيًّا؛ لتُؤَكِّدَ أنه لا فرقَ بَيْنَ فَتًى وفَتاةٍ وامْرَأَةٍ وَرَجُلٍ.

مَعَ خالصِ شُكْرِي وتَقْديري لهذِهِ الدَّارِ التي نشرتْ هَذَا الْكِتَابَ، فهي دارٌ للنَّشْرِ لا يهمُّها الرِّبْحُ بقَدْرِ مَا يهمُّها تَوْصِيلُ رِسالةٍ لجِيلِ المُسْتَقْبَل.

أشرف أبو جليل

نَماذِجُ إيمانِيَّةٌ

آسِيَا بِنْتُ مُزَاحِمٍ

(مُؤْمِنَةٌ في قَصْرِ فِرْعَوْنَ)

فَتَحتْ «آسِيَا بِنْتُ مُزَاحِمٍ» زَوْجَةُ «فِرْعَوْنَ» عَيْنَيْهَا، وَنَهَضَتْ مِنْ سَرِيرِهَا الْمُرِيحِ ذَا صَبَاحٍ، لَكِنَّهَا كانَتْ تَشْعُرُ بِالاخْتِنَاقِ؛ فَمُنْذُ أَنْ آمَنَتْ بِرِسَالَةِ «مُوسَى» عليه السلام واتَّبَعَتْ طَرِيقَ اللهِ، وَمُنْذُ أَنْ قَالَ «فِرْعَوْنُ» لِشَعْبِهِ إِنَّنِي رَبُّكُمُ الْأَعْلَى - بَدَأَتْ تَشْعُرُ بِكَرَاهِيَتِهِ.

وقَدْ تَعَلَّقَ قَلْبُهَا بِصَدِيقَةٍ لَهَا مُؤْمِنَةٍ باللهِ، وَهِيَ امْرَأَةُ «حِزْقِيلَ» الَّتِي تَعْمَلُ ماشِطَةً لابْنَةِ «فِرْعَوْنَ». وَكَانَتْ تَجْلِسُ مَعَ الْمَاشِطَةِ فَتَقْرَآنِ تَعَالِيمَ الرَّبِّ، وَتَتَدَبَّرَانِ صُنْعَ اللهِ.

وما إِنْ فَتَحتْ «آسِيَا» شُبَّاكًا يُطِلُّ عَلَى حَدِيقَةٍ كَبِيرَةٍ؛ لِتَشُمَّ الْهَوَاءَ وَتَسْتَمْتِعَ بِرُؤْيَةِ مَنْظَرٍ يَسُرُّ نَفْسَهَا، حَتَّى وَقَعَ بَصَرُهَا عَلَى الْمَاشِطَةِ وَهِيَ تَصْرُخُ بَيْنَ أَيْدِي الْجُنُودِ، وَ«فِرْعَوْنُ» يَجْلِسُ عَلَى كُرْسِيٍّ مُرْتَفِعٍ. وقَدْ أَمْسَكَ الْجُنُودُ بِالْمَاشِطَةِ، وَرَبَطُوا كُلَّ يَدٍ بِحَبْلٍ، وَبَدَءُوا يَشُدُّونَ بِقُوَّةٍ وَهِيَ تَصْرُخُ:

- لَنْ أَعْبُدَ إِلَّا اللهَ، لَنْ أَعْبُدَكَ يا «فِرْعَوْنُ»..

وظَلَّتْ هَكَذَا حَتَّى سَكَتَ صَوْتُهَا، وَفَاضَتْ رُوحُهَا. فَشَهِقَتْ «آسِيَا» مِنْ هَوْلِ الْمَنْظَرِ وَشَعَرَتْ بِالدُّوَارِ، وَسَقَطَتْ فَاقِدَةً وَعْيَهَا لِلَحَظَاتٍ..



أَفَاقَتْ «آسِـيَا» فَوَجَدَتِ الْخَدَمَ وَالْجَوَارِيَ مُتَجَمِّعِينَ حَوْلَهَا، بَيْنَمَا أَتَى طَبِيبُ الْقَصْرِ وَمِنْ وَرَائِهِ وَقَفَ «فِرْعَوْنُ»؛ لِيَطْمَئِنَّ عَلَى زَوْجَتِهِ.

أَعْطَى الطَّبِيبُ بَعْضَ الْأَدْوِيَةِ لِلْمَلِكَةِ، فَبَدَأَتْ أَنْفَاسُـهَا الْمُضْطَرِبَةُ تَهْدَأُ، وَخَرَجَ الْجَمِيعُ مِنَ الْحُجْرَةِ إِلَّا «فِرْعَوْنَ» الَّذِي جَلَسَ عَلَى حَافَةِ السَّرِيرِ. فَالْتَفَتَتْ إِلَيْهِ وَالدُّمُوعُ تَمْلَأُ عَيْنَيْهَا وَقَالَتْ:

- لِمَاذَا قَتَلْتَ صَدِيقَتِي زَوْجَةَ «حِزْقِيل»؟

قَالَ «فِرْعَوْنُ» غَاضِبًا:

- كَانَتِ الْمَاشِطَةُ تَمْشُطُ شَعْرَ ابْنَتِي بِالْأَمْسِ، وَعِنْدَمَا سَقَطَ الْمُشْطُ مِنْ يَدِهَا قَالَتْ «بِاسْمِ اللهِ»، فَقَالَتْ لَهَا ابْنَتِي:

- بَلْ قُولِي بِاسْمِ «فِرْعَوْنَ».

فَقَالَتِ الْمَاشِطَةُ فِي عِنَادٍ وَقِحٍ:

- لَنْ أَقُولَ إِلَّا بِاسْمِ اللهِ، الَّذِي هُوَ أَكْبَرُ وَأَعْظَمُ مِنْ «فِرْعَوْنَ» وَمِنَ الدُّنْيَا كُلِّهَا.

فَصَرَخَتِ ابْنَتِي فِي وَجْهِهَا، وَجَاءَتْ إِلَيَّ وَقَصَّتْ لِي مَا حَدَثَ.

فَأَصْدَرْتُ قَرَارِي بِمُعَاقَبَةِ الْمَاشِطَةِ حَتَّى مَاتَتْ وَهِيَ تُرَدِّدُ:

- لَنْ أَعْبُدَ إِلَّا اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ.

هُنَا صَرَخَتْ «آسِيَا» فِي وَجْهِهِ:

- وَأَنَا أَيْضًا لَنْ أَعْبُدَ إِلَّا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكَ وَرَبَّ الْعَالَمِينَ.

قَالَ «فِرْعَوْنُ» بِغَضَبٍ:

- اصْمُتِي.

وَأَمَرَ أَحَدَ الْجُنُودِ بِإِحْضَارِ أُمِّ «آسِيَا» بِسُرْعَةٍ إِلَى الْقَصْرِ.

وَفِي لَحَظَاتٍ كَانَتْ أُمُّ «آسِيَا» تَتَلَقَّى التَّعْلِيمَاتِ مِنْ «فِرْعَوْنَ» لِإِقْنَاعِ ابْنَتِهَا «آسِيَا» بِالرُّجُوعِ عَنْ عِبَادَةِ إِلَهِ «مُوسَى»..

لَكِنَّ «آسِيَا» أَصَرَّتْ عَلَى مَوْقِفِهَا، وَخَرَجَتِ الْأُمُّ حَزِينَةً؛ فَهِيَ تَعْرِفُ النِّهَايَةَ الْأَلِيمَةَ لِمَنْ يُخَالِفُ «فِرْعَوْنَ».



فِي صَبَاحِ الْيَــوْمِ التَّالِي أَصْدَرَ «فِرْعَــوْنُ» قَرَارَهُ بِتَعْذِيبِ «آسِــيَا» بِرَبْطِهَا بِالْحِبَالِ وَشَدِّهَا، وَوَضْعِهَا عَلَى الرِّمَالِ السَّــاخِنَةِ، وَإِلْقَاءِ حَجَــرٍ كَبِيرٍ عَلَيْهَا حَتَّى تَمُوتَ.

وَعِنْدَمَا أَسْــقَطَ الْجُنُــودُ الْحَجَرَ عَلَى جَسَدِ «آسِــيَا» الطَّاهِرِ، لَمْ تَشْعُرْ بِهِ؛ لأَنَّ رُوحَهَا قَدْ خَرَجَتْ وَصَعِدَتْ إِلَى خَالِقِهَا؛ لِتَكُونَ شَــهِيدَةً لِدَعْــوَةِ الْحَقِّ ضِدَّ الطَّاغِيَةِ «فِرْعَوْنَ» وَجُنُودِهِ.

«أَيَارْخَا» الصَّابِرَةُ

(أُمُّ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلامُ)

مُنْذُ أَنْ شَعرَتْ «أَيَارْخَا» بِالْحَمْلِ وَهِيَ تَشْعُرُ بِالدُّوارِ.. لَيْسَ مِنْ آلَامِ الْحَمْلِ، وَلَكِنْ مِنَ الْمَصِيرِ الْمَجْهُولِ الَّذِي يَنْتَظِرُ وَلِيدَهَا إِنْ كَانَ ذَكَرًا؛ فَهِيَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ اتَّخَذَهُمْ «فِرْعَوْنُ» خَدَمًا وَفَلَّاحِينَ، وَمُنْذُ سَنَوَاتٍ وَ«فِرْعَوْنُ» يَقْتُلُ الْأَوْلَادَ الذُّكُورَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ؛ لأَنَّهُ حَلَمَ ذَاتَ لَيْلَةٍ أَنَّ نَارًا أَتَتْ مِنَ الْقُدْسِ وَحَرَقَتْ بُيُوتَ مِصْرَ كُلَّهَا، وَقَدْ فَسَّرَ الْكَهَنَةُ لَهُ هَذَا الْحُلْمَ بِأَنَّ مَوْلُودًا ذَكَرًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ سَيُدَمِّرُ مُلْكَهُ بِمِصْرَ.

مَرَّتْ أَشْهُرُ الْحَمْلِ، وَلَمْ تَظْهَرْ آثَارُهُ عَلَى بَطْنِ الْأُمِّ، وفَاجَأَتْهَا آلَامُ الْوِلَادَةِ، فَلَجَأَتْ إِلَى حُجْرَةٍ خَلْفِيَّةٍ مِنَ الْبَيْتِ، وَوَضَعَتْ وَلِيدَهَا، فَإِذَا بِهِ ذَكَرٌ، فَدَبَّ الْخَوْفُ فِي قَلْبِهَا مِنَ الْمَصِيرِ الدَّامِي الَّذِي يَنْتَظِرُهُ.

وبِمُجَرَّدِ أَنْ نَهَضَتِ الْأُمُّ وَتَخطَّتْ آلَامَ الْوِلَادَةِ، ذَهَبَتْ إِلَى نَجَّارٍ مَاهِرٍ لِيَصْنَعَ لَهَا تَابُوتًا مَتِينًا، يُمْكِنُهُ أَنْ يَعُومَ فِي الْمَاءِ ولَا يَغْرَقَ. وَوَضَعَتِ الْأُمُّ التَّابُوتَ فِي الْمِيَاهِ، وَرَبَطَتْهُ بِحَبْلٍ طَوِيلٍ يُبْعِدُهُ عَنِ الْبَيْتِ.

جَاءَ يَوْمٌ سَمِعَتْ فِيهِ الْأُمُّ طَرَقَاتٍ مُتَلَاحِقَةً عَلَى الْبَابِ. أَدْرَكَتْ أَنَّ جُنُودَ «فِرْعَوْنَ» بِالْخَارِجِ، فَأَسْرَعَتْ بِالطِّفْلِ وَوَضَعَتْهُ فِي التَّابُوتِ،



وَعادَتْ لِتَفْتَحَ الْبابَ، فَنَسِيَتْ مِنْ سُرْعَتِها وَخَوْفِها أَنْ تَرْبُطَ الْحَبْلَ جَيِّدًا. وَبَعْدَ أَنْ أَنْهى رِجالُ «فِرْعَوْنَ» تَفْتيشَ الْبَيْتِ، رَجَعَتِ الْأُمُّ لِتَجِدَ الْكارِثَةَ بِانْتِظارِها؛ فَقَدْ جَرَفَتِ الْمِياهُ التَّابوتَ وَأَخَذَتْهُ بَعيدًا!

بِقَلْبٍ مُلْتاعٍ قالَتِ الْأُمُّ لِابْنَتِها:

- تابِعِي التَّابوتَ، وَاعْرِفي أَيْنَ ذَهَبَ وَأَيْنَ سَيَسْتَقِرُّ؛ حَتَّى نَسْتَعيدَ أَخاكِ.

تابَعَتِ الطِّفْلَةُ التَّابوتَ مِنْ بُعْدٍ، فَإِذا بِهِ يَرْسو في مَرْسى قَصْرِ «فِرْعَوْنَ» الَّذي أَعَدَّهُ لِزَوْجَتِهِ «آسِيا بِنْتِ مُزاحِمٍ»، وَقَدْ تَصادَفَ أَنَّ زَوْجَتَهُ كانَتْ مَعَ بَعْضِ جَوارِيها تَتَنَزَّهُ عَلى هَذا الْمَرْسى مِنَ الشَّاطِئِ، فَوَجَدَتِ التَّابوتَ يَرْسو بِالْقُرْبِ مِنْها، فَأَمَرَتِ الْخَدَمَ بِإِحْضارِهِ، وَلَمَّا فَتَحوهُ وَجَدوا بِهِ طِفْلًا جَميلًا.

وَكانَتِ الْمَلِكَةُ لا تُنْجِبُ، فَسَعِدَتْ بِذَلِكَ الطِّفْلِ سَعادَةً كَبيرَةً، وَسَرى الْخَبَرُ حَتَّى وَصَلَ إِلى «فِرْعَوْنَ»، فَأَسْرَعَ إِلى الشَّاطِئِ، وَهَمَّ أَنْ يَقْتُلَ الطِّفْلَ لَوْلا رَجاءُ زَوْجَتِهِ أَنْ يَتْرُكَهُ؛ عَسى أَنْ يَنْفَعَهُما أَوْ يَتَّخِذاهُ وَلَدًا لَهُما.

عَلى مَضَضٍ وافَقَ «فِرْعَوْنُ» عَلى طَلَبِ زَوْجَتِهِ، وَما إِنْ دَخَلَ الرَّضيعُ الْقَصْرَ حَتَّى ظَلَّ يَصْرُخُ مِنَ الْجوعِ، فَأَتَتْ زَوْجَةُ «فِرْعَوْنَ» بِبَعْضِ الْمُرْضِعاتِ مِنَ الْقَصْرِ وَمِنْ خارِجِهِ، إِلَّا أَنَّ الرَّضيعَ ظَلَّ يَصْرُخُ وَيَرْفُضُ الرَّضاعَةَ. هُنا قالَتْ أُخْتُ «موسى» لِلْحُرَّاسِ:

- هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى أَهْلِ بَيْتٍ يُرْضِعونَهُ لَكُمْ؟

وَدلَّتْهُمْ عَلَى مَكَانِ أُمِّهَا، دُونَ إِلْحَاحٍ؛ حَتَّى لَا يَشُكُّوا فِي أَمْرِهَا.

أَحْضَرَ الْجُنُودُ «أُمَّ مُوسَــى»، وَمَا إِنِ اقْتَرَبَتْ مِنْ وَلِيدِهَا حَتَّى أَقْبَلَ يَرْضَعُ بِشَغَفٍ وَنَهَمٍ مِنْ صَدْرِهَا حَتَّى ارْتَوَى. هُنَا طَلَبَتْ «آسِيَا» زَوْجَةُ «فِرْعَوْنَ» مِنْ «أُمِّ مُوسَى» أَنْ تَبْقَى فِي الْقَصْرِ لِإِرْضَاعِهِ، وَلَكِنَّهَا تَمَنَّعَتْ وَرَفَضَتْ؛ حَتَّى لَا تُثِيرَ شُكُوكَهَا، وَقَالَتْ:

- إِنَّ لَدَيَّ أُسْرَةً وَزَوْجًا لَا أَقْدِرُ عَلَى تَرْكِهِمْ، وَلَكِنَّنِي مُسْتَعِدَّةٌ أَنْ أُرْضِعَهُ فِي مَنْزِلِي.

فَوَافَقَتْ «آسِيَا» عَلَى طَلَبِ «أُمِّ مُوسَــى»، وَأَرْسَلَتْ مَعَهَا الرَّضِيعَ، وَظَلَّ «مُوسَــى» مَعَ أُمِّهِ يَكْبُرُ يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، حَتَّى تَحَقَّقَ وَعْدُ اللهِ لِأُمِّهِ، وَأَرْسَلَهُ اللهُ رَسُولًا لِقَوْمِهِ، وَأَعَزَّ شَعْبَهُ بِهِ.



مَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ

(السَّيِّدَةُ الْعَذْرَاءُ)

كَانَتْ «حَنَّةُ بِنْتُ فَاقُوذ» تَتَنَزَّهُ فِي الْحَدِيقَةِ الْمُجَاوِرَةِ لِمَنْزِلِهَا فِي مَدِينَةِ الْقُدْسِ، وَتَنْظُرُ إِلَى زَوْجِهَا الْعَجُوزِ «عِمْرَانَ بْنِ مَاتَان» وَتَقُولُ:

- مَا أَطْيَبَ الْحَيَاةَ مَعَكَ يَا زَوْجِيَ الصَّالِحَ! لَوْلَا مَا فِي نَفْسِي مِنْ شَوْقٍ لِإِنْجَابِ طِفْلٍ مِنْكَ.

أَمْسَكَ «عِمْرَانُ» بِيَدِ زَوْجَتِهِ، وَقَالَ:

- لَا شَيْءَ يَغْلِبُ إِرَادَةَ اللهِ يَا «حَنَّةُ».

فَنَاجَتْ «حَنَّةُ» رَبَّهَا أَنْ يَرْزُقَهَا مِنْ زَوْجِهَا مَوْلُودًا ذَكَرًا عَلَى أَنْ تَهَبَهُ لِخِدْمَةِ بَيْتِ اللهِ، وَاسْتَجَابَ اللهُ لِدُعَائِهَا وَنَجْوَاهَا، وَحَمَلَتْ «حَنَّةُ»، وَفَرِحَتْ بِحَمْلِهَا، وَنَذَرَتْ هَذَا الْحَمْلَ لِخِدْمَةِ بَيْتِ اللهِ إِنْ جَاءَ ذَكَرًا.

وَضَعَتْ «حَنَّةُ» مَوْلُودَهَا فَإِذَا بِهِ أُنْثَى.. وَقَعَتِ الْأُمُّ فِي حَرَجٍ شَدِيدٍ، لَقَدْ نَذَرَتِ ابْنَهَا إِنْ كَانَ ذَكَرًا، فَمَاذَا تَفْعَلُ وَالْمَوْلُودُ أُنْثَى؟!

قَرَّرَ الزَّوْجُ أَنْ يَبَرَّ بِالنَّذْرِ، وَذَهَبَ بِمَوْلُودَتِهِ إِلَى بَيْتِ اللهِ؛ لِتَنْشَأَ فِيهِ نَشْأَةً طَيِّبَةً. وَمَاتَ أَبُوهَا، وَتَنَافَسَ الْأَحْبَارُ فِي بَيْتِ اللهِ.. مَنْ يَكْفُلُهَا وَيَرْعَاهَا؟

وَتَوَصَّلُوا إِلَى حَلٍّ وَهُوَ أَنْ يُلْقُوا أَقْلَامَهُمْ فِي نَهْرِ الْأُرْدُن، فَمَنْ يَسْتَقِرُّ قَلَمُهُ وَلَا يَعُومُ يَكْفُلُهَا.

وَأَلْقَوْا أَقْلَامَهُمْ، فَإِذَا بِقَلَمِ «زَكَرِيَّا» زَوْجِ خَالَتِهَا هُوَ الَّذِي يَسْـتَقِرُّ فِي الْمَاءِ، فَكَفَلَهَا «زَكَرِيَّـا» وَرَعَاهَا، وَأَخَذَ يَذْهَبُ كُلَّ يَـوْمٍ بِالطَّعَامِ لَهَا. وَلَكِنَّ الْمُفَاجَأَةَ وَالدَّهْشَـةَ كَانَتْ تَعْتَرِيهِ كُلَّمَا ذَهَبَ إِلَيْهَا؛ فَكُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا مِنْ فَاكِهَةٍ وَمَأْكُولَاتٍ فِي غَيْرِ أَوَانِهَا!!

وَذَاتَ يَوْمٍ تَجَسَّـدَ لَهَا «جِبْرِيلُ» عليه السلام فِي صُورَةِ رَسُولٍ مِنَ اللهِ يُبَلِّغُهَا بِخَبَرٍ مُهِمٍّ، وَهُوَ أَنَّهَا سَـتَحْمِلُ وَسَـتَضَعُ وَلَدًا سَـيَكُونُ رَسُولَ رَبِّ الْعَالَمِينَ! فَقَالَتْ لِـ «جِبْرِيلَ» عليه السلام:



- كَيْفَ أَحْمِلُ وَأَضَعُ مَوْلُودًا وَأَنَا عَذْرَاءُ لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ؟!

فَقَالَ لَهَا «جِبْرِيلُ» عَلَيْهِ السَّلَامُ:

- إِنَّ هَذِهِ إِرَادَةُ اللهِ، وَأَمْرُهُ لَا يُرَدُّ.

وَوَجَدَتْ «مَرْيَمُ» نَفْسَهَا بَيْنَ عَشِيَّةٍ وَضُحَاهَا حَامِلًا، فَخَافَتْ أَنْ تَدُورَ الشُّكُوكُ بَيْنَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، وَأَنْ يَطْعَنُوا فِي شَرَفِهَا وَطُهْرِهَا، بِرَغْمِ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ قَالَتْ لَهَا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: 42].

فَخَرَجَتْ مِنَ الْمَدِينَةِ لَا تَدْرِي إِلَى أَيْنَ! خَرَجَتْ «مَرْيَمُ» إِلَى وَادٍ مَهْجُورٍ بِمَدِينَةِ «بَيْتِ لَحْمٍ» بِفِلَسْطِينَ؛ حَتَّى تَبْتَعِدَ عَنْ أَعْيُنِ النَّاسِ.

وَعِنْدَمَا شَعَرَتْ بِآلَامِ الْوِلَادَةِ أَتَتْ إِلَى جِذْعِ نَخْلَةٍ، وَاشْتَدَّتْ عَلَيْهَا آلَامُ الْوِلَادَةِ، فَقَالَتْ كَسِيرَةً حَزِينَةً: ﴿يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم: 23]، فَإِذَا بِالنِّدَاءِ يَأْتِيهَا مِنْ تَحْتِهَا ﴿أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريم: 24]، فَوَضَعَتْ وَلَدًا مُبَارَكًا يَشِعُّ النُّورُ مِنْ وَجْهِهِ، وَبَيْنَمَا تُعَانِي آلَامَ مَا بَعْدَ الْوِلَادَةِ يَأْتِيهَا «جِبْرِيلُ» عَلَيْهِ السَّلَامُ وَيَأْمُرُهَا بِأَنْ تَهُزَّ جِذْعَ النَّخْلَةِ، فَيَسْقُطَ عَلَيْهَا رُطَبٌ بِهِ الْغِذَاءُ الْكَافِي لَهَا.

وَيَبْقَى السُّؤَالُ: كَيْفَ تُوَاجِهُ أَهْلَهَا وَقَوْمَهَا وَهِيَ عَائِدَةٌ بِطِفْلٍ مَجْهُولِ الْأَبِ؟! مَاذَا تَقُولُ لَهُمْ؟! فَإِذَا بِالرَّضِيعِ الَّذِي لَمْ يُكْمِلْ عِدَّةَ أَيَّامٍ يَطْرَحُ الْإِجَابَةَ بِلِسَانٍ مُبِينٍ: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ٣٠﴾



﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: 23].

هُنَا تَخْرَسُ أَلْسِنَةُ الشَّامِتِينَ وَالشَّاتِمِينَ، وَيَجِدُونَ أَنْفُسَهُمْ أَمَامَ مُعْجِزَةٍ إِلَهِيَّةٍ نَاطِقَةٍ..

وَكَمَا شَهِدَتِ الْأُمُّ آلَامَ الْمُعْجِزَةِ الْأُولَى فِي الْحَمْلِ وَالْوِلَادَةِ، تَابَعَتْ مُعْجِزَاتِ ابْنِهَا بَيْنَ قَوْمِهِ حَتَّى مَشْهَدِ النِّهَايَةِ الَّذِي وَضَعَتْهُ حِكْمَةُ اللهِ.

خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ

(أَوَّلُ مُؤْمِنَةٍ بِالْإِسْلَامِ)

بِجِوَارِ حَائِطٍ قَدِيمٍ مُتَهَدِّمٍ، وَقَفَتِ امْرَأَةٌ عَجُوزٌ عَمْيَاءُ تَبْكِي، وَتَتَحَسَّسُ الطَّرِيقَ بِعَصَاتِهَا، وَلَكِنَّهَا لا تَهْتَدِي إِلَيْهِ، فَصَاحَتْ:

- أَلَا يُوجَدُ مَنْ يَأْخُذُ بِيَدِي إِلَى دَارِ «خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدِ بْنِ أَسَدٍ»؟

تَقَدَّمَتْ فَتَاةٌ إِلَيْهَا، وَقَالَتْ:

- سَأَذْهَبُ بِكِ إِلَى دَارِ «خَدِيجَةَ» يَا خَالَةُ.

زَادَ بُكَاءُ الْعَجُوزِ، وَقَالَتْ:

- لَيْتَنِي ذَهَبْتُ إِلَيْهَا بِالْأَمْسِ، لَقَدْ مَاتَتْ.. مَاتَتْ صَاحِبَةُ الْعِفَّةِ وَالْعَقْلِ وَالْحَزْمِ.. مَاتَتِ الطَّاهِرَةُ بِنْتُ الْمَجْدِ وَالرِّيَاسَةِ.. زَوْجَةُ أَعْظَمِ رَجُلٍ.. سَيِّدِي «مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ» رَسُولِ اللهِ إِلَى الْعَالَمِينَ.

لَا بُدَّ أَنْ أَذْهَبَ كَيْ أُوَاسِيَهُ؛ لَقَدْ كَانَتْ «خَدِيجَةُ» لَهُ كُلَّ شَيْءٍ، وَقَدْ سَبَقَ أَنْ سَمِعْتُ الرَّسُولَ ﷺ وَهُوَ يَقُولُ عَنْهَا: «آمَنَتْ بِي إِذْ كَفَرَ النَّاسُ، وَصَدَّقَتْنِي إِذْ كَذَّبَنِي النَّاسُ، وَرَزَقَنِي اللهُ مِنْهَا الْوَلَدَ».

لَقَدْ كَانَ مَوْقِفُهَا مَعَهُ فِي بِدَايَةِ دَعْوَتِهِ لِلْإِسْلَامِ عَظِيمًا.

قَالَتِ الْفَتَاةُ:

- كَيْفَ يَا خَالَةُ؟



قَالَتِ الْعَجُوزُ:

ـ كَانَتْ «خَدِيجَةُ» قَدْ تَزَوَّجَتْ بِـ«مُحَمَّدٍ» بَعْدَمَا رَأَتْ فِيهِ الْأَمَانَةَ وَالصِّدْقَ وَالْإِخْلَاصَ فِي الْعَمَلِ، وَكَانَ عُمْرُهُ خَمْسَةً وَعِشْرِينَ عَامًا، وَعُمْرُهَا أَرْبَعُونَ عَامًا.

وَذَاتَ لَيْلَةٍ.. أَتَى إِلَيْهَا الرَّسُولُ ﷺ يَرْتَعِدُ جَسَدُهُ، يَقُولُ: «زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي».

فَأَسْرَعَتِ السَّيِّدَةُ «خَدِيجَةُ» وَزَمَّلَتْهُ بِغِطَاءٍ صُوفِيٍّ سَمِيكٍ، حَتَّى بَدَأَ يَشْعُرُ بِالدِّفْءِ، فَحَكَى لَهَا مَا حَدَثَ لَهُ، وَقَالَ: «لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي».

فَطَمْأَنَتْهُ عَلَى نَفْسِهِ، وَقَالَتْ لَهُ:

ـ أَبْشِرْ، فَوَاللهِ لَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا؛ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتَتَحَمَّلُ الْمَشَاقَّ.

وَهَدَّأَتْ مِنْ رَوْعِهِ حَتَّى نَامَ، وَذَهَبَتْ إِلَى ابْنِ عَمِّهَا «وَرَقَةَ بْنِ نَوْفَلٍ» وَكَانَ مَسِيحِيًّا، وَعَلَى دِرَايَةٍ بِتَارِيخِ الرُّسُلِ وَالرِّسَالَاتِ، وَقَصَّتْ عَلَيْهِ مَا حَدَثَ لِزَوْجِهَا فِي الْغَارِ، فَقَالَ لَهَا:

ـ هَذَا هُوَ مَا يَحْدُثُ لِلْأَنْبِيَاءِ. إِنَّهُ الْوَحْيُ قَدْ أَتَى بِرِسَالَةٍ جَدِيدَةٍ إِلَى الْعَرَبِ.

عَادَتْ «خَدِيجَةُ» مِنْ عِنْدِ ابْنِ عَمِّهَا إِلَى زَوْجِهَا سَعِيدَةً، تُبَشِّرُهُ بِمَا سَمِعَتْ مِنْ «وَرَقَةَ»، وَأَحَسَّتْ أَنَّ عَهْدًا جَدِيدًا سَوْفَ يَبْدَأُ.

وَمَا إِنْ بَدَأَ الرَّسُـــولُ ﷺ يَدْعُو لِدَعْوَتِهِ حَتَّى أَصْبَـــحَ يَأْتِيهَا كُلَّ يَوْمٍ مُهَانًـــا مِنْ قَوْمِهِ، حَيْثُ بَالَغُوا فِي إِيذَائِهِ، فَلَعِبَتْ دَوْرًا كَبِيرًا فِي التَّخْفِيفِ عَنْهُ وَالْوُقُوفِ مَعَهُ، وَرَاحَتْ تُهَوِّنُ عَلَيْهِ أَكَاذِيبَ قُرَيْشٍ الَّتِي يُرَوِّجُونَهَا عَنْهُ.

هُنَا قَالَتِ الْفَتَاةُ لِلْعَجُوزِ:

- هَوِّنِي عَلَيْكِ يَا خَالَةُ، لَقَدْ وَصَلْنَا إِلَى الدَّارِ.

مَا إِنْ تَرَكَتِ الْفَتَاةُ السَّيِّدَةَ الْعَجُوزَ، حَتَّى تَحَسَّسَتْ طَرِيقَهَا بِعَصَاهَا الطَّوِيلَةِ، وَكَأَنَّهَا تَعْرِفُهُ جَيِّدًا، وَأَخَذَتْ تُكَرِّرُ:

- إِنَّـــا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ. الرَّحْمَةُ لَكِ يَا «خَدِيجَةُ»، وَالسَّـــلْوَى لِي يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.



عَائِشَةُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ

(أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ ... وَمُعَلِّمَةُ الْأُمَّةِ)

جَلَسَ الرَّسُولُ ﷺ أَمَامَ بَيْتِهِ مَهْمُومًا؛ فَقَدْ تُوُفِّيَتْ زَوْجَتُهُ وَخَلِيلَتُهُ «خَدِيجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ»، كَمَا أَنَّ مَوْتَ عَمِّهِ «أَبِي طَالِبٍ» أَضْعَفَ مَوْقِفَهُ أَمَامَ أَهْلِ مَكَّةَ الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِهِ لِإِيذَائِهِ. رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ وَأَخَذَ يَدْعُو اللهَ أَنْ يُفَرِّجَ عَنْهُ كَرْبَهُ وَهُمُومَهُ. وَدَخَلَ إِلَى دَارِهِ.

وَبَيْنَمَا هُوَ فِي تَسْبِيحِهِ وَأَدْعِيَتِهِ، إِذْ دَقَّتِ الْبَابَ «خَوْلَةُ بِنْتُ حَكِيمٍ»، وَأَلْقَتِ السَّلَامَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَرَأَتْ مَا فِيهِ مِنَ الْهَمِّ بَعْدَ فَقْدِ الزَّوْجَةِ وَالْعَمِّ، فَقَالَتْ لَهُ:

- يَا رَسُولَ اللهِ، مَا رَأْيُكَ أَنْ تَتَزَوَّجَ؟

فَقَالَ ﷺ:

- مَنْ؟

قَالَتْ:

- ابْنَةَ أَحَبِّ خَلْقِ اللهِ - عَزَّ وَجَلَّ - إِلَيْكَ.. «عَائِشَةَ بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ».

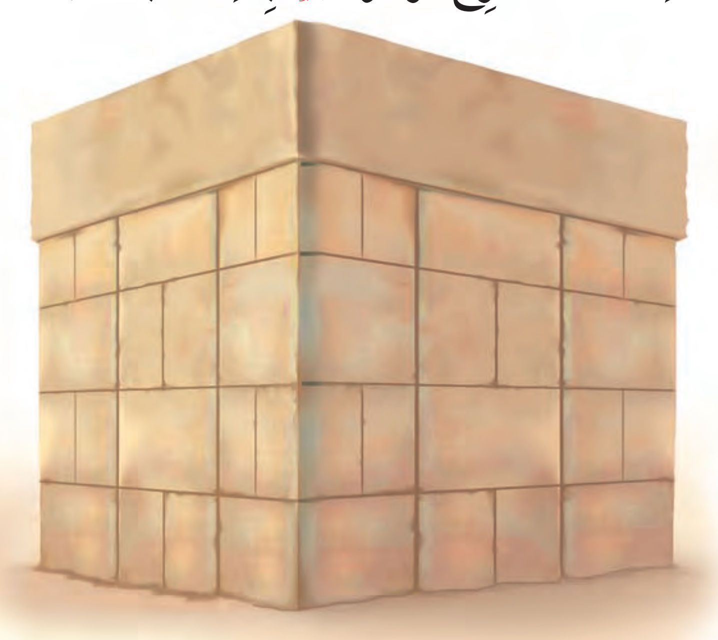
فَقَالَ الرَّسُولُ ﷺ :

- اذْهَبِي فَاذْكُرِي لَهُ ذَلِكَ .

ذَهَبَتْ «خَوْلَةُ» مُسْرِعَةً إِلَى مَنْزِلِ «أَبِي بَكْرٍ»، وَفَاجَأَتْهُ بِالْخَبَرِ السَّارِّ، فَطَلَبَ مِنْهَا أَنْ تُمْهِلَهُ سَاعَةً.

ثُمَّ خَرَجَ «أَبُو بَكْرٍ» إِلَى صَدِيقِهِ «الْمُطْعَمِ بْنِ عَدِيٍّ» الَّذِي كَانَ ابْنُهُ خَطِيبًا لـ«عَائِشَةَ»، وَعِنْدَمَا دَخَلَ الْبَيْتَ فُوجِئَ بِـ«أُمِّ جُبَيْرٍ» زَوْجَةِ «الْمُطْعَمِ» تَسْخَرُ مِنْهُ وَمِنَ الدِّينِ الَّذِي اعْتَنَقَهُ، فَأَدْرَكَ «أَبُو بَكْرٍ» أَنَّ أُمَّ الْفَتَى الَّذِي سَيَتَزَوَّجُ «عَائِشَةَ» سَتَكُونُ سَبَبًا لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْكِلَاتِ، فَطَلَبَ مِنْ صَدِيقِهِ أَنْ يَحُلَّا مَا اتَّفَقَا عَلَيْهِ مِنْ قَبْلُ، فَوَافَقَ «الْمُطْعَمُ»؛ لِأَنَّهُ أَدْرَكَ ذَلِكَ أَيْضًا. فَعَادَ «أَبُو بَكْرٍ» وَأَخْبَرَ «خَوْلَةَ» بِمُوَافَقَتِهِ.

عَادَتْ «خَوْلَةُ» فَأَخْبَرَتِ الرَّسُولَ ﷺ بِمُوَافَقَةِ «أَبِي بَكْرٍ» عَلَى خِطْبَةِ ابْنَتِهِ «عَائِشَةَ» لَهُ، فَفَرِحَ الرَّسُولُ ﷺ بِذَلِكَ، وَبَاتَ لَيْلَتَهُ وَقَدِ انْفَرَجَتْ



بَعْضُ هُمُومِهِ، فَإِذَا بِهِ يَرَى فِيمَا يَرَى النَّائِمُ أَنَّ جِبْرِيلَ عليه السلام قَدْ جَاءَهُ بِقِطْعَةِ قُمَاشٍ حَرِيرِيَّةٍ مَلْفُوفَةٍ عَلَى شَيْءٍ، وَقَالَ لَهُ: هَذِهِ زَوْجَتُكَ. فَفَتَحَ الرَّسُولُ ﷺ قِطْعَةَ الْقُمَاشِ فَوَجَدَ فِيهَا صُورَةَ «عائِشَةَ».

اسْتَيْقَظَ الرَّسُولُ ﷺ مُسْتَبْشِرًا، وذَهَبَ في الصَّبَاحِ إِلَى صَدِيقِهِ «أَبِي بَكْرٍ»؛ لِيَنْقُلَ لَهُ مَا رَآهُ ـ وكانَ «أَبُو بَكْرٍ» دَائِمَ التَّصْدِيقِ لِمَا يَقُولُهُ الرَّسُولُ ﷺ؛ لِذلِكَ سُمِّيَ بِالصِّدِّيقِ ـ فَشَعَرَ «أَبُو بَكْرٍ» بِالسَّعادَةِ أَيْضًا، وأَحَسَّ أَنَّ الزَّواجَ سَيَكُونُ مُبارَكًا.

تَزَوَّجَ الرَّسُولُ ﷺ «عَائِشَةَ» وَهِيَ صَغِيرَةُ السِّنِّ، وَهُنَا تَظْهَرُ قُدْرَةُ الْفَتَاةِ عَلَى إِدَارَةِ شُؤونِ بَيْتِهَا، فَقَدْ كَانَتْ أَحَبَّ الزَّوْجَاتِ إِلَى زَوْجِها رَسُولِ اللهِ، وَكَانَ يُفَضِّلُهَا عَلَى نِسَاءِ الْعَرَبِ جَمِيعِهِنَّ، وَقَامَتْ هِيَ بِدَوْرِهَا خَيْرَ قِيَامٍ، وَسَاعَدَهَا صِغَرُ سِنِّهَا عَلَى امْتِلاءِ عَقْلِهَا بِالْأَحَادِيثِ وَحِفْظِ الْقُرْآنِ وَتَفْسِيرِهِ وَعُلُومِهِ، حَتَّى شَهِدَ لَهَا كِبَارُ الصَّحَابَةِ.

أَصْبَحَتِ السَّيِّدَةُ «عَائِشَةُ» مُعَلِّمَةَ الْأُمَّةِ ؛ فَقَدْ قَالَ عَنْهَا «عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ»:

ـ مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَعْلَمَ بِالْقُرْآنِ وَلَا بِفَرَائِضِهِ، وَلَا بِحَلَالٍ وَلَا بِحَرَامٍ، وَلَا بِشِعْرٍ وَلَا بِحَدِيثِ عَرَبٍ، وَلَا بِنَسَبٍ مِنْ «عَائِشَةَ».

وَقَالَ «أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ»:



ـ عِنْدَمَـــا يَصْعُـــبُ عَلَيْنَا فَهْــمُ حَدِيثٍ لِلرَّسُولِ، نَسْأَلُ «عَائِشَةَ»، فَنَجِدُ عِنْدَهَا عِلْمًا لِكُلِّ شَيْءٍ.

وَكَانَـــتْ «عَائِشَـــةُ» تَفْخَرُ دَائِمًـــا بِأَنَّ الرَّسُـــولَ ﷺ تَزَوَّجَهَا بِكْرًا، وَأَنَّهُ نَزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي فِرَاشِــهَا، وَأَنَّهُ مَاتَ بَيْنَ يَدَيْهَا، وَدُفِنَ فِي بَيْتِهَا.

أُمُّ سَلَمَةَ

(أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ ... وَمُسْتَشَارَةُ الرَّسُولِ)

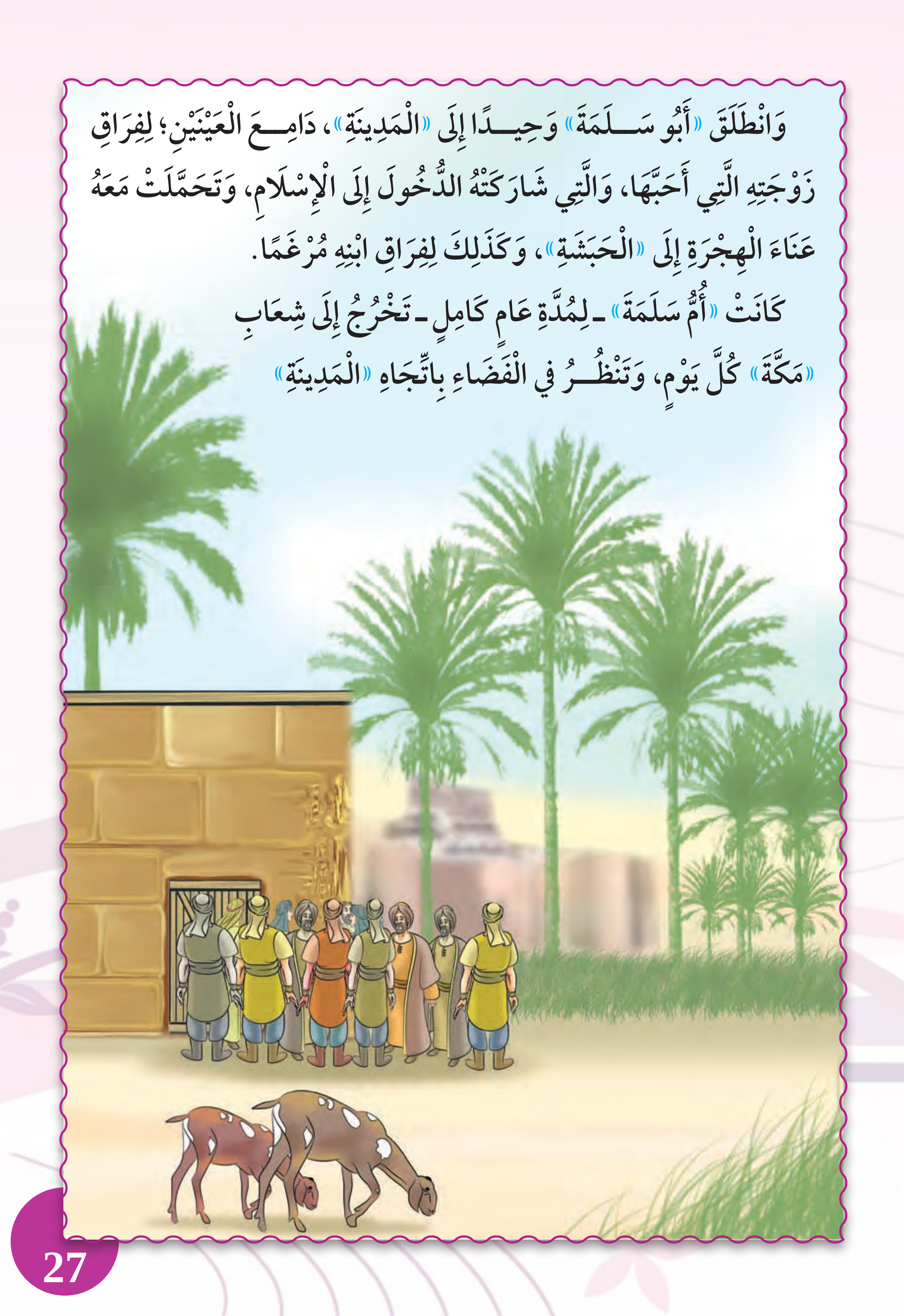
اسْـتَيْقَظَتْ «مَكَّةُ» فِي الصَّبَاحِ عَلَى صَوْتِ مُشَـاجَرَةٍ كَبِيرَةٍ أَمَامَ بَيْتِ «أَبِي سَـلَمَةَ الْمَخْزُومِيِّ»، وَاقْتَرَبَ رِجَالُ «مَكَّةَ» مِـنَ الْبَيْتِ؛ لِيَتَبَيَّنُوا سَبَبَ هَذِهِ الضَّجَّةِ، فَوَجَدُوا «بَنِي الْمُغِيرَةِ» يُمْسِكُونَ ابْنَتَهُمْ «أُمَّ سَلَمَةَ» وَطِفْلَهَا «سَـلَمَةَ» وَيُهَدِّدُونَ وَيَتَوَعَّدُونَ زَوْجَهَا؛ لأَنَّـهُ انْتَوَى أَنْ يَتَّجِهَ مُهَاجِرًا إِلَى «الْمَدِينَةِ»، فَقَالُوا لَهُ:

- إِذَا أَرَدْتَ الْهِجْـرَةَ، هَاجِرْ أَنْتَ، أَمَّا ابْنَتُنَا فَلَنْ نَسْـمَحَ لَهَا أَنْ تُغَادِرَ أَهْلَهَا فِي «مَكَّةَ».

وَدَفَعَ أَحَدُهُمْ «أَبَا سَلَمَةَ» بَعِيدًا، فَأَحَسَّ أَهْلُ «أَبِي سَلَمَةَ» بِالْإِهَانَةِ، فَصَاحَ رَجُلٌ مِنْهُمْ:

- «أُمُّ سَلَمَةَ» ابْنَتُكُمْ، وَأَنْتُمْ أَحْرَارٌ فِيهَا، أَمَّا ابْنُنَا الرَّضِيعُ «سَلَمَةُ» فَلَنْ نَسْمَحَ أَنْ يَنْشَأَ فِي بُيُوتِكُمْ؛ إِنَّهُ ابْنُنَا وَنَحْنُ أَوْلَى بِهِ.

وَأَخَذَ أَهْلُ «أَبِي سَلَمَةَ» وَأَهْلُ «أُمِّ سَلَمَةَ» يَتَجَاذَبُونَ الطِّفْلَ الرَّضِيعَ حَتَّى خُلِعَتْ كَتِفُهُ مِنْ شِـدَّةِ تَجَاذُبِهِمَا لَهُ! وَتَدَخَّلَ كِبَارُ الْقَوْمِ وَأَعْطَوُا الطِّفْـلَ لِأَهْلِهِ «بَنِي مَخْزُومٍ»، وَحَبَسُـوا أُمَّهُ فِي بُيُـوتِ أَهْلِهَا مِنْ «بَنِي الْمُغِيرَةِ».



وَانْطَلَقَ «أَبُو سَــلَمَةَ» وَحِيــدًا إِلَى «الْمَدِينَةِ»، دَامِــعَ الْعَيْنَيْنِ؛ لِفِرَاقِ زَوْجَتِهِ الَّتِي أَحَبَّهَا، وَالَّتِي شَارَكَتْهُ الدُّخُولَ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَتَحَمَّلَتْ مَعَهُ عَنَاءَ الْهِجْرَةِ إِلَى «الْحَبَشَةِ»، وَكَذَلِكَ لِفِرَاقِ ابْنِهِ مُرْغَمًا.

كَانَتْ «أُمُّ سَلَمَةَ» ـ لِمُدَّةِ عَامٍ كَامِلٍ ـ تَخْرُجُ إِلَى شِعَابِ «مَكَّةَ» كُلَّ يَوْمٍ، وَتَنْظُـرُ فِي الْفَضَاءِ بِاتِّجَاهِ «الْمَدِينَةِ»

بَاكِيَةً داعِيَةً رَبَّهَا أَنْ يَلْتَئِمَ شَــمْلُ أُسْرَتِهَا.. وَظَلَّتْ هَكَذَا حَتَّى رَقَّ قَلْبُ رَجُلٍ مِنْ «بَنِي الْمُغِيرَةِ» لَهَا، وَتَحَدَّثَ مَعَ بَقِيَّةِ الْقَوْمِ في شَــأْنِهَا، فَأَذِنُوا لَهَا بَعْدَ عَامٍ كَامِلٍ أَنْ تَلْحَقَ بِزَوْجِهَا «أَبِي سَلَمَةَ».

وعِنْدَمَا وَصَلَتْ «أُمُّ سَلَمَةَ» إِلَى «الْمَدِينَةِ»، عَاشَتْ هِيَ وَ«أَبُو سَلَمَةَ» وَأَطْفَالُهُمَا في سَعَادَةٍ بِجِوَارِ رَسُولِ اللهِ ﷺ في «الْمَدِينَةِ»، حَتَّى جَاءَ يَوْمُ أُحُدٍ، وَأَبْلَى فِيهِ «أَبُو سَــلَمَةَ» بَلَاءً حَسَنًا، غَيْرَ أَنَّهُ عَادَ مِنَ الْغَزْوَةِ مُصَابًا، وَمَرِضَ مَرَضًا شَدِيدًا، حَتَّى فَاضَتْ رُوحُهُ إِلَى بَارِئِهَا عَزَّ وَجَلَّ.

وَحَزِنَتْ عَلَيْهِ «أُمُّ سَلَمَةَ» حُزْنًا شَــدِيدًا، وَكَانَتْ تَشْكُو لِرَسُولِ اللهِ سُوءَ حَالِهَا بَعْدَ مَوْتِ زَوْجِهَا، فَقَالَ لَهَا الرَّسُولُ ﷺ:

- قُولِي: «اللَّهُمَّ أَجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي، وَارْزُقْنِي خَيْرًا مِنْهَا».

ذَاتَ يَوْمٍ فُوجِئَتْ «أُمُّ سَلَمَةَ» بِرَسُولِ اللهِ ﷺ يَطْرُقُ بَابَهَا، فَخَاطَبَتْهُ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، فَطَلَبَ مِنْهَا الزَّوَاجَ، فَوَافَقَتْ، وَتَزَوَّجَ مِنْهَا الرَّسُــولُ ﷺ، وَكَانَتْ مُسْتَشَــارَةً لَهُ فِي أُمُورِ الدَّعْوَةِ؛ فَقَدْ دَخَلَ عَلَيْهَا الرَّسُولُ ﷺ سَنَةَ فَتْحِ «مَكَّةَ» وَهُوَ غَاضِبٌ! فَسَأَلَتْهُ:

- مَا بِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟

فَقَالَ لَهَا:

- بَعْدَ أَنْ وَقَّعْتُ مُعَاهَدَةَ صُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ، رَفَضَ الْمُسْــلِمُونَ شُــرُوطَ الْكُفَّارِ الْمُتَشَــدِّدَةَ، وَرَأَوْهَا مُهِينَةً لَهُمْ. فَلَمَّا أَمَرْتُهُمْ - بَعْدَ أَنْ وَقَّعْتُ

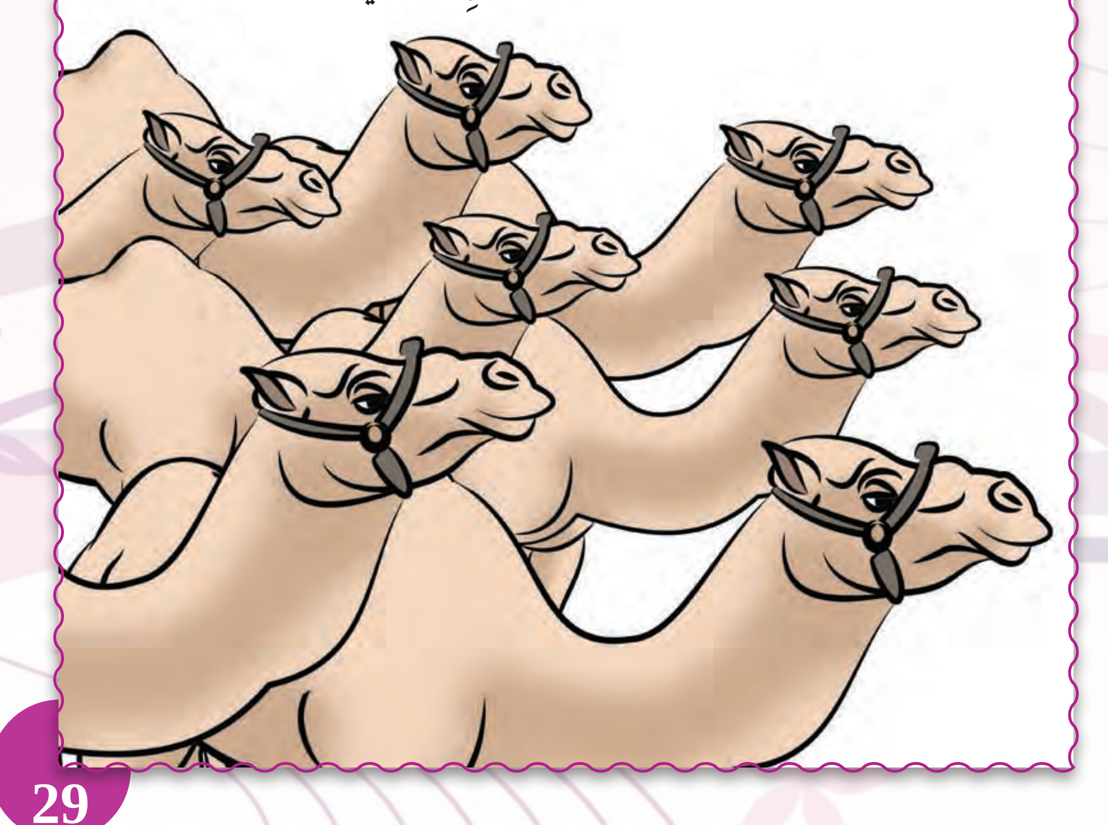
الصُّلْـحَ ـ أَنْ يَقُومُوا وَيَذْبَحُوا الذَّبَائِحَ وَيَحْلِقُوا رُؤوسَـهُمْ، لَمْ يَقُمْ أَحَدٌ! فَكَـرَّرْتُ عَلَيْهِمُ الْكَلَامَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَـمْ يَقُمْ أَحَدٌ مِنْهُمْ!!

هُنَا اقْتَرَبَتْ «أُمُّ سَلَمَةَ» مِنَ الرَّسُولِ ﷺ، وَقَالَتْ:

ـ يَا نَبِـيَّ اللهِ، اخْرُجِ الْآنَ وَلَا تُكَلِّمْ مِنْهُمْ أَحَـدًا، وَانْحرْ أَنْتَ نَاقَتَكَ، وَاحْلِقْ أَنْتَ أَمَامَهُمْ.

فَقَامَ الرَّسُولُ ﷺ وَفَعَلَ ذَلِكَ، فَإِذَا بِالْمُسْلِمِينَ جَمِيعًا يَقُومُونَ وَرَاءَهُ، فَيَنْحَرُونَ ذَبَائِحَهُمْ وَيَحْلِقُونَ رُؤوسَهُمْ فِي زِحَامٍ شَدِيدٍ!

عَاشَتْ «أُمُّ سَلَمَةَ» عُمْرًا مَدِيدًا، وَرَوَتْ 378 حَدِيثًا عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَتُوُفِّيَتْ بَعْدَ أَنْ جَاءَهَا نَبَأُ اسْتِشْهَادِ «الْحُسَيْنِ» رضي الله عنه فِي «كَرْبَلَاءَ».



نَسِيبَةُ بِنْتُ كَعْبٍ

(الدِّفَاعُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ)

فِي صَالَةِ بَيْتٍ بَدَوِيٍّ جَلَسَتْ فَتَاةٌ تَلْعَبُ بِالدُّمَى الْمَصْنُوعَةِ مِنَ الْقُمَاشِ، فَجْأَةً سَمِعَتْ صَوْتًا يُنَادِي مِنْ خَارِجِ الدَّارِ:

ـ يَا «أُمَّ عُمَارَةَ».. يَا «أُمَّ عُمَارَةَ».

دَخَلَتِ الْفَتَاةُ إِلَى جَدَّتِهَا «نَسِيبَةَ بِنْتِ كَعْبٍ» وَقَالَتْ لَهَا:

ـ هُنَاكَ رَجُلٌ يُنَادِيكِ يَا جَدَّتِي..

نَهَضَتْ «أُمُّ عُمَارَةَ» تَتَوَكَّأُ عَلَى عَصَاهَا، وَتَتَأَلَّمُ لِمَا فِي جِسْمِهَا مِنْ جُرُوحٍ قَدِيمَةٍ، وَفَتَحَتِ الْبَابَ وَقَالَتْ:

ـ أَهْلًا بِخَلِيفَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَرْحَبًا بِكَ يَا «أَبَا بَكْرٍ».

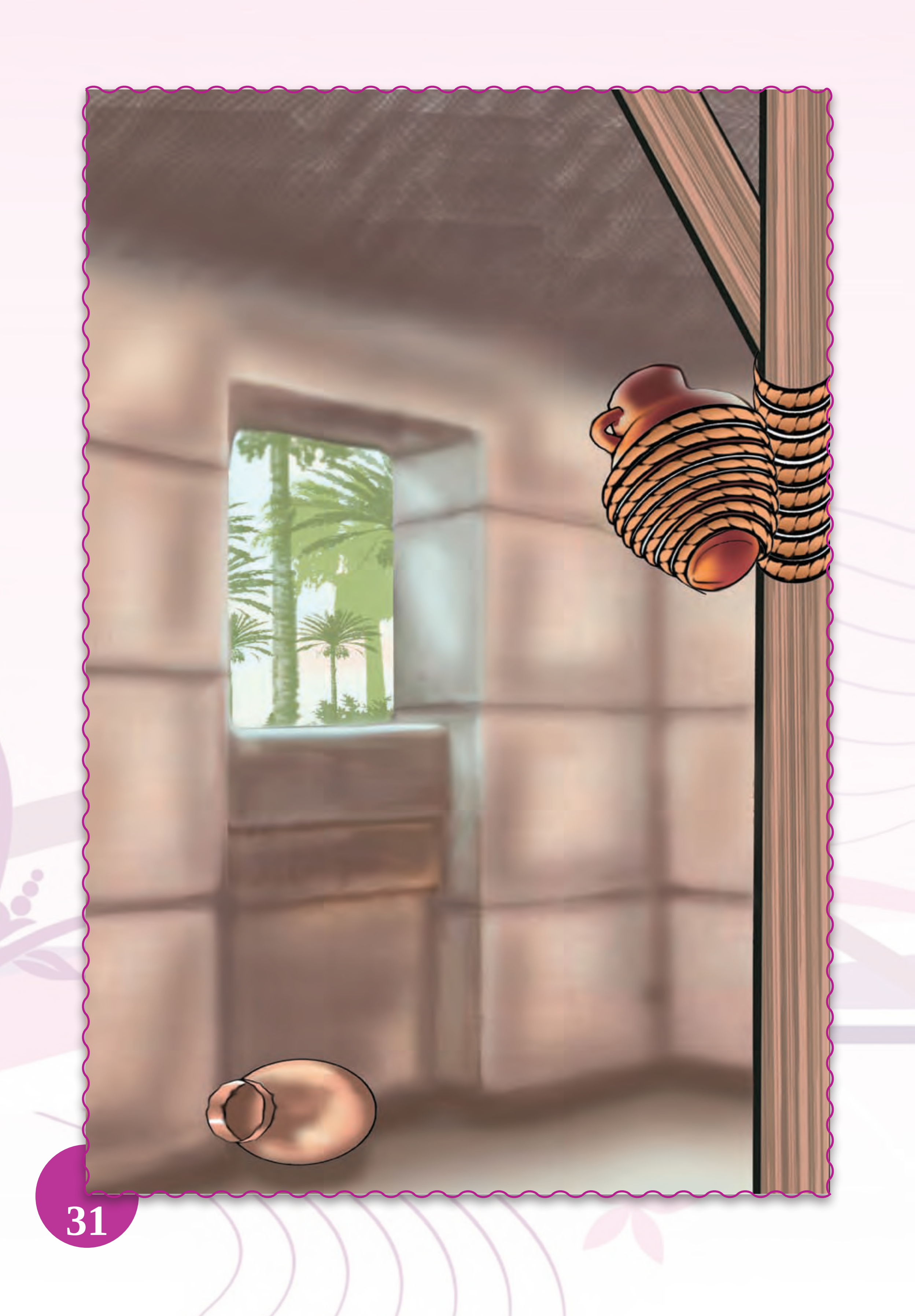
كَانَ الْخَلِيفَةُ قَدْ جَاءَ إِلَى «أُمِّ عُمَارَةَ»؛ لِيَطْمَئِنَّ عَلَيْهَا، وَيَطْلُبَ مِنْهَا أَنْ تُرْسِلَ إِلَيْهِ إِذَا احْتَاجَتْ شَيْئًا، كَمَا كَانَ يَفْعَلُ مَعَهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ.

وَبَعْدَمَا رَحَلَ قَالَتِ الْفَتَاةُ:

ـ سَأَلْتُكِ كَثِيرًا يَا جَدَّتِي أَنْ تَحْكِي لِي عَنْ سَبَبِ هَذِهِ الْجُرُوحِ الَّتِي تَرَكَتْ عَلَامَاتٍ كَثِيرَةً فِي جَسَدِكِ. أَمَا آنَ الْأَوَانُ لِأَنْ أَعْرِفَ؟

قَالَتِ الْجَدَّةُ:

ـ لَقَدْ كَانَ فِي جِسْمِي ثَلَاثَةَ عَشَرَ جُرْحًا، شُفِيَ مِنْهَا اثْنَا عَشَرَ جُرْحًا،



والحَمْدُ للهِ. وأَخْطَرُ هَذِه الْجُرُوحِ هُوَ قَطْعُ يَدِي اليُسْرَى كَمَا تَرَيْنَ.

واعْلَمِي يا ابْنَتى أَنَّ لَكُلِّ جُرْحٍ قِصَّةً، فَلْتَسْمَعِيهَا..

هَذَا الْجُرْحُ الْغَائِرُ كَانَ في غَزْوَةِ أُحُدٍ، حَيْثُ كَانَ النَّصْرُ لِلْمُسْلِمِينَ في الْبِدَايَةِ، ثُمَّ تَحَوَّلَ إِلَى هَزِيمَةٍ بَعْدَ مُخَالَفَةِ الرُّمَاةِ لأَمْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَكُنْتُ أَعْمَلُ في سِقَايَةِ الْجُنُودِ خَلْفَ الْجَيْشِ، فَوَجَدْتُ الرَّسُولَ ﷺ لَا يُحِيطُ بِهِ إِلَّا عَشَرَةٌ فَقَطْ، فَجَرَيْتُ نَحْوَهُ أَنَا وَابْنَايَ وَزَوْجِي، وَظَلِلْتُ أُدَافِعُ عَنْهُ بِسَيْفٍ وَجَدْتُهُ عَلَى الْأَرْضِ. وهُنا صاحَ الرَّسُولُ ﷺ في أَحَدِ المَهْزُومِينَ أَنْ يَتْرُكَ لي دِرْعَهُ، فتَرَكَه ووَلَّى مُسْرِعًا، فَأَخَذْتُ الدِّرْعَ وَبَدَأْتُ أَتَلَقَّى بِهِ الضَّرَبَاتِ عن رَسُولِ اللهِ ﷺ وأَحْمِيهِ أَنا والْعَشَرَةُ الْمُحِيطِينَ بِهِ، حَتَّى جَاءَ كَافِرٌ اسْمُهُ «ابْنُ قَمِيئَةَ» فَضَرَبَنِي بِسَيْفِهِ، فَوَقَعْتُ عَلَى الْأَرْضِ، ولَكِنَّنِي ضَرَبْتُ بِسَيْفِي عُرْقُوبَ فَرَسِهِ، فَسَقَطَ الْحِصانُ وسَقَطَ مِنْ فَوْقِهِ «ابْنُ قَمِيئَةَ»، فَتَقَدَّمْتُ إِلَيْهِ، وظَلِلْتُ أَضْرِبُهُ بِسَيْفِي، وَسَمِعْتُ الرَّسُولَ ﷺ يَقُولُ لابْنِي:

- يا ابْنَ «أُمِّ عُمَارَةَ».. أُمَّكَ .. أُمَّكَ.

وَبِالْفِعْلِ جَاءَ أَبُوكِ لِنَجْدَتِي، وَظَلِلْنَا نَضْرِبُ في «ابْنِ قَمِيئَةَ» حَتَّى مَاتَ.

قَالَتِ الْفَتَاةُ:

- وَهَلْ أَحْدَثَ «ابْنُ قَمِيئَةَ» كُلَّ هَذِهِ الْإِصَابَاتِ بِكِ؟

فَقَالَتِ الْجَدَّةُ:

- لَا يَا ابْنَتِي، لَقَدْ شَـــهِدْتُ غَزَوَاتٍ أُخْرَى غَيْـــرَ غَزْوَةِ أُحُدٍ، مِثْلَ: يَوْمِ «حَمْرَاءِ الْأَسَـــدِ» الَّذِي رَبَطْتُ فيه ثِيابِي عَلَى جِراحِي وَقُمْتُ لِلْقِتالِ إِلَى جَانِبِ رَسُـــولِ اللهِ ﷺ، وذَلِكَ بَعْدَ غَزْوَةِ «أُحُدٍ» مُباشَـــرَةً. وَيوْمِ «حُنَيْنٍ»، وَيَوْمِ «الْيَمَامَةِ» الَّذِي قُطِعَتْ فِيهِ يَدِي الْيُسْرَى.

قَالَتِ الْفَتَاةُ وَهِيَ مُتَأَثِّرَةٌ:

- وَهَلْ أَدْرَكَ الرَّسُولُ ﷺ مَا تَقُومِينَ بِهِ؟

قَالَتِ الْجَدَّةُ:

- بَلْ شَـــرَّفَنِي وَكَرَّمَنِي، وَدَعَا رَبَّهُ أَنْ أَكُونَ وَأَبْنَائِي وَزَوْجِي رُفَقَاءَهُ فِي الْجَنَّةِ، وَسَـــمِعْتُهُ يَقُولُ: «لَمَقَامُ «نَسِـــيبَةَ بِنْتِ كَعْبٍ» خَيْرٌ مِنْ فُلَانٍ وَفُلَانٍ». وَأَخَذَ يُعَدِّدُ أَسْـــمَاءَ بَعْضِ الصَّحَابَـــةِ. فَعَرَفْتُ أَنَّنِي عَالِيَةُ الْمَكَانَةِ عِنْدَهُ.

واعْلَمِي يا ابْنَتِي أَنَّ الْخَطَرَ عِنْدَمَا يَقْتَرِبُ مِـــنْ رَسُـــولِ اللهِ ﷺ فَلا بُـــدَّ أَنْ يَنْهَضَ الْجَمِيعُ، لا فَرْقَ بَيْنَ رَجُلٍ وامْرَأَةٍ وطِفْلٍ وطِفْلَةٍ، بَلْ يَجِبُ عَلَى الْجَمِيعِ نُصْرَةُ الرَّسُـــولِ ﷺ والدِّفاعُ عَنْهُ.

أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ

(ذَاتُ النِّطَاقَيْنِ)

بَعْدَ أَنْ أَتَمَّتْ «أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ» صَلَاةَ قِيَامِ اللَّيْلِ، أَخَذَتْ تَدْعُو اللهَ أَنْ يَحْمِيَ ابْنَهَا «عَبْدَ اللهِ بْنَ الزُّبَيْرِ» مِنَ الْخَطَرِ الْمُحْدِقِ بِهِ؛ فَقَدْ وَصَلَ «الْحَجَّاجُ بْنُ يُوسُفَ الثَّقَفِيُّ» إِلَى «مَكَّةَ» يَبْتَغِي قَتْلَ ابْنِهَا.

وبَيْنَمَا هِيَ فِي نَجْوَاهَا إِذْ سَمِعَتْ طَرْقًا خَافِتًا عَلَى الْبَابِ، فَفَتَحَتِ الْبَابَ، فَارْتَمَى «عَبْدُ اللهِ» وَلَدُهَا بَيْنَ أَحْضَانِهَا، ثُمَّ قَالَ لَهَا:

- لَقَدْ تَخَلَّى عَنِّي أَصْحَابِي، وَلَمْ يَبْقَ مَعِي غَيْرُ الْقَلِيلِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَرْفُضُونَ قَهْرَ وَظُلْمَ «الْحَجَّاجِ»، وَسَنَظَلُّ نَرْفُضُ أَنْ يُوَرِّثَنَا الْحُكَّامُ لِأَبْنَائِهِمْ مُخَالِفِينَ مَنْهَجَ اللهِ الَّذِي يَقُولُ: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: 38]. وَلَكِنَّنِي أُرَانِي مَقْتُولًا لَا مَحَالَةَ، وَلَقَدْ جِئْتُ إِلَيْكِ مُتَسَلِّلًا؛ لِأُخْبِرَكِ بِأَنَّ «الْحَجَّاجَ» قَدْ عَرَضَ عَلَيَّ أَنْ أَسْتَسْلِمَ وَأُبَايِعَ، وَسَيُعْطِينِي أَمْوَالًا كَثِيرَةً، وَيَضْمَنُ لِي رَغَدَ الْعَيْشِ وَالْحَيَاةَ النَّاعِمَةَ.

انْتَفَضَتْ أُمُّهُ «أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ» فِي جِلْسَتِهَا، وَقَالَتْ:

- أَتَسْتَسْلِمُ لِعَدُوِّ اللهِ؟! أَيْنَ أَنْتَ مِنْ شَجَاعَةِ أَبِيكَ وَأُمِّكَ؟! فَعِنْدَمَا اقْتَحَمَ الْمُشْرِكُونَ بَيْتَ النَّبِيِّ ﷺ لَيْلَةَ الْهِجْرَةِ وَلَمْ يَجِدُوهُ فِي فِرَاشِهِ، هَاجُوا وَمَاجُوا وَجَاءُوا إِلَى بَيْتِ أَبِي، وَعِنْدَمَا سَأَلَنِي «أَبُو جَهْلٍ» عَنْ



مَكَانِ أَبِي رَفَضْتُ أَنْ أُخْبِرَهُ، فَلَطَمَنِي عَلَى وَجْهِي لَطْمَةً قَوِيَّةً، فَسَالَ دَمِي عَلَى وَجْهِي، وَانْسَحَبَ بَعْدَ أَنْ أَحَسَّ بِالْعَارِ؛ لأَنَّهُ ضَرَبَ فَتَاةً .

وَرَغْمَ مُتَابَعَةِ الْكُفَّارِ لِبَيْتِنَا وَمُرَاقَبَتِهِمْ لَهُ؛ لِمَعْرِفَةِ أَيَّةِ أَخْبَارٍ عَنْ مَكَانِ اخْتِفَاءِ أَبِي وَرَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَّا أَنَّنِي اسْتَطَعْتُ أَنْ أَخْرُجَ مِنَ الْبَيْتِ وَمَعِي شَاةٌ مَطْبُوخَةٌ وَالْمَاءُ اللَّازِمُ لِسَقْيِهِمَا، وَفَكَكْتُ نِطَاقِيَ الَّذِي يَلُفُّ وَسَطِي، وَشَقَقْتُهُ نِصْفَيْنِ، وَرَبَطْتُ الْمَاءَ فِي نِصْفِهِ، وَالطَّعَامَ فِي نِصْفِهِ، فَلَمَّا رَآنِي الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ قَالَ:

- «أَبْدَلَكِ اللهُ بِنِطَاقِكِ هَذَا نِطَاقَيْنِ فِي الْجَنَّةِ».

فَقَالَ «عَبْدُ اللهِ»:

- وَلِهَذَا أَطْلَقَ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْكِ «ذَاتَ النِّطَاقَيْنِ».. سَأَكُونُ شُجَاعًا مِثْلَكِ يَا أُمَّاهُ، وَمُتَمَسِّكًا بِالْحَقِّ كَمَا فَعَلَ أَبِي حِينَمَا أَصَرَّ عَلَى دِينِهِ وَرَفَضَ الْعَوْدَةَ لِلْكُفْرِ مَرَّةً أُخْرَى. وَلَكِنِّي أَخَافُ إِنْ قُتِلْتُ أَنْ يُمَثِّلَ «الْحَجَّاجُ» بِجُثَّتِي.

فَقَالَتْ «أَسْمَاءُ»:

- يَا وَلَدِي مَاذَا يَضُرُّ الشَّاةَ إِذَا سُلِخَتْ بَعْدَ ذَبْحِهَا؟ وَاللهِ لَئِنْ أَصَابَتْكَ ضَرْبَةُ سَيْفٍ وَأَنْتَ تُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللهِ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْمَوْتِ فِي مَذَلَّةٍ.

فَقَالَ «عَبْدُ اللهِ»:

- سَأُقَاتِلُ يَا أُمِّي مُتَحَصِّنًا بِبَيْتِ اللهِ الْحَرَامِ حَتَّى آخِرِ لَحْظَةٍ.

وَمَـا إِنْ مَرَّتْ عِـدَّةُ أَيَّامٍ حَتَّى ضَـرَبَ «الْحَجَّاجُ» بَيْـتَ اللهِ الْحَرَامَ بِالْمَنْجَنِيقِ، وَقَتَلَ «عَبْدَ اللهِ بْنَ الزُّبَيْرِ»، وَأَمَرَ أَنْ يُعَلَّقَ عَلَى نَخْلَةٍ! وَظَلَّتْ «أَسْـمَاءُ» تَذْهَبُ لابْنِهَا تَبْكِيهِ وَهُوَ مَصْلُوبٌ. ثُمَّ ذَهَبَتْ إِلَى «الْحَجَّاجِ» وَقَالَتْ لَهُ:

- أَمَا آنَ لِهَذَا الفَارِسِ أَنْ يَتَرَجَّلَ، وَلِهَذَا الشَّهِيدِ أَنْ يُدْفَنَ؟

فَقَالَ «الْحَجَّاجُ»:

- لَقَدْ عَصَى أَوَامِرَنَا، وَلَمْ يَسْتَسْلِمْ لَنَا، وَلَمْ يُبَايِعْ .

فَقَالَتْ «أَسْمَاءُ» :

- لَقَدْ قَتَلْتَ صَوَّامًا قَوَّامًا بَرًّا بِوَالِدَيْهِ ، حَافِظًا لِكِتَابِ اللهِ. لَقَدْ أَفْسَدْتَ عَلَيْهِ دُنْيَاهُ، فَأَفْسَدَ عَلَيْكَ آخِرَتَكَ .

وَأَمَامَ شَجَاعَةِ «أَسْمَاءَ» لَمْ يَجِدِ «الْحَجَّاجُ» بُدًّا مِنْ إِنْزَالِ جَسَـدِ «عَبْـدِ اللهِ»، فَأَخَذَتْهُ «أَسْمَاءُ» وَغَسَّـلَتْهُ وَكَفَّنَتْهُ وَصَلَّتْ عَلَيْهِ قَبْلَ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ .

ظَلَّتْ «أَسْـمَاءُ» تُعَانِي مِنَ الْحَسْرَةِ عَلَى ابْنِهَا وَمَا حَدَثَ لَهُ، فَمَاتَتْ بَعْدَ دَفْنِ ابْنِهَا «عَبْدِ اللهِ» بِعَشَـرَةِ أَيَّامٍ.

حَلِيمَةُ السَّعْدِيَّةُ

(مُرْضِعَةُ الرَّسُولِ ﷺ)

أَوْشَكَ قُرْصُ الشَّمْسِ عَلَى الْمَغِيبِ، فَعَادَ «الْحَارِثُ السَّعْدِيُّ» إِلَى بَيْتِهِ حَزِينًا يَسُوقُ أَمَامَهُ أَغْنَامَهُ الْجَائِعَةَ، فَوَجَدَ زَوْجَتَهُ «حَلِيمَةَ السَّعْدِيَّةَ»، تَجْلِسُ هَزِيلَةَ الْجِسْمِ مِنْ قِلَّةِ الْغِذَاءِ.

اتَّجَهَتْ «حَلِيمَةُ» تِجَاهَ ثَلَاثِ عَنْزَاتٍ لِتَحْلِبَهُنَّ، وَلَكِنَّهَا عَادَتْ بِالْإِنَاءِ خَالِيًا، فَلَمْ تَجِدْ لَبَنًا فِي الْعَنْزَاتِ الثَّلَاثِ؛ فَقَالَتْ لِزَوْجِهَا:

- لَيْسَ أَمَامَنَا إِلَّا أَنْ نَذْبَحَ شَاةً جَدِيدَةً مِنْ هَذِهِ الْأَغْنَامِ.

وَقَبْلَ أَنْ تَنَامَ، فَاتَحَتْ «حَلِيمَةُ» زَوْجَهَا فِي أَمْرِ شُغْلِهَا، فَقَالَتْ:

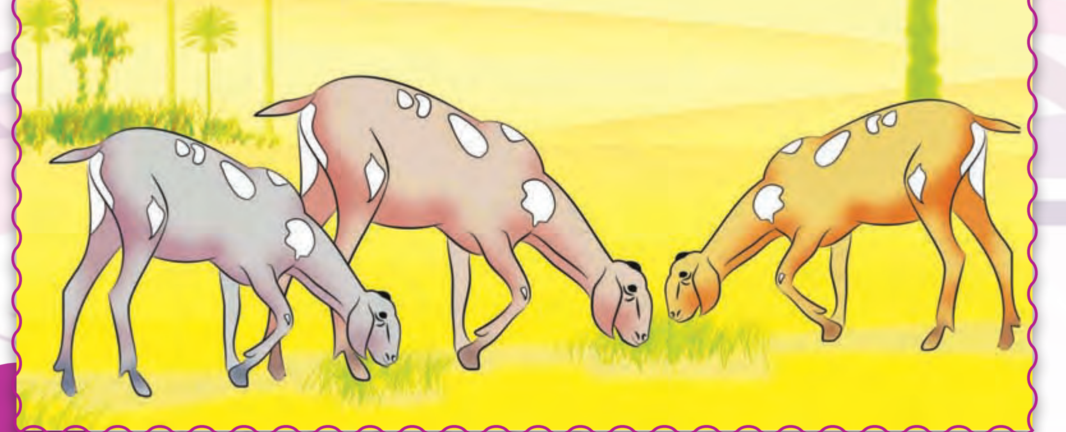
- غَدًا سَتَذْهَبُ نِسَاءُ «بَنِي سَعْدٍ» إِلَى «مَكَّةَ»؛ بَحْثًا عَنْ أَطْفَالٍ لِسَادَةِ وَأَشْرَافِ «مَكَّةَ» كَيْ يُرْضِعْنَهُمْ، فَاسْمَحْ لِي يَا زَوْجِي أَنْ أَذْهَبَ مَعَهُمْ؛ عَلَّنِي أَرْجِعُ بِوَلَدٍ لِأَحَدِ أَبْنَاءِ سَادَةِ «مَكَّةَ»، وَلَنْ يَبْخَلَ عَلَيْنَا أَبُوهُ بِالطَّعَامِ لَنَا وَلِابْنِهِ كَعَادَةِ أَهْلِ «مَكَّةَ» الْكُرَمَاءِ.

فَوَافَقَ «الْحَارِثُ»، وَأَخْبَرَهَا بِأَنَّهُ سَيُرَافِقُهَا فِي هَذِهِ الرِّحْلَةِ.

فِي عَصْرِ الْيَوْمِ التَّالِي كَانَتْ كُلُّ النِّسَاءِ قَدْ سَبَقْنَ «حَلِيمَةَ» وَزَوْجَهَا إِلَى «مَكَّةَ»؛ لِأَنَّ حِمَارَتَهُمَا كَانَتْ هَزِيلَةً ضَعِيفَةً مِنْ قِلَّةِ الْأَكْلِ. فَفَازَتِ

النِّساءُ بِأَبْناءِ الأَغْنِياءِ، ولَمْ تَجِدْ «حَلِيمَةُ» إِلَّا طِفْلًا يَتِيمَ الْأَبِ، تُوُفِّيَ أَبُوهُ وَهُوَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ، فَذَهَبَتْ وَتَعَرَّفَتْ عَلَى الطِّفْلِ، فَعَرَفَتْ أَنَّهُ «مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ»، وَهُوَ مِنْ أُسْـرَةٍ مَعْرُوفٌ عَنْهَا خِدْمَةُ الْبَيْتِ الْحَرَامِ. أَخَذَتْهُ «حَلِيمَةُ» وَعَادَتْ بِهِ إِلَى الْخَيْمَةِ، فَوَجَدَتِ ابْنَهَا الرَّضِيعَ يَبْكِي جَائِعًا.

وَمَا إِنْ جَلَسَـتْ «حَلِيمَـةُ» وَوَضَعَـتْ «مُحَمَّدًا» فِي حِجْرِهَا وَأَعْطَتْـهُ ثَدْيَهَا، حَتَّى تَدَفَّقَ اللَّبَنُ غَزِيرًا، فَانْدَهَشَتْ مِمَّا تَرَى، وَظَلَّتْ تُرْضِعُهُ حَتَّى رَوِيَ، وَأَمْسَـكَتِ ابْنَهَا فَرَضَعَ لَبَنًـا غَزِيرًا حَتَّى رَوِيَ.



وفي رِحْلَةِ الْعَوْدَةِ تَعَجَّبَتِ النِّساءُ مِنْ حِمارَةِ «حَليمَةَ»؛ فَقَدْ سَبَقَتِ الْجَميعَ! ولَكِنَّهُنَّ فَسَّرْنَ ذَلِكَ ضاحِكاتٍ بِأَنَّ حِمارَةَ «حَليمَةَ» مُشْتاقَةٌ إِلَى دِيارِ «بني سعد»؛ لِذَلِكَ فَهِيَ تُسْرِعُ في الْعَوْدَةِ.

وَما إِنْ وَصَلُوا حَتَّى تَوَجَّهَ «الْحارِثُ» إِلَى غَنَمِهِ، فَإِذا بِها تَكادُ ضُروعُها تَنْفَجِرُ مِنْ كَثْرَةِ اللَّبَنِ، فَأَسْرَعَ بِها إِلَى الْبَيْتِ، وَأَخَذَ هُوَ وَ«حَليمَةُ» وَأَبْناؤُهُما يَحْلِبُونَ الشِّياهَ وَهُمْ في دَهْشَةٍ مِمَّا يَرَوْنَ.

فَقالَ «الْحارِثُ»:

- يا «حَليمَةُ» إِنَّ «مُحَمَّدًا» نَسْمَةٌ مُبارَكَةٌ أَتَيْتِ بِها مِنْ «مَكَّةَ».

وَبَعْدَ مُرورِ أَرْبَعَةِ أَعْوامٍ، أَقْبَلَ ابْنُ «حَليمَةَ» الصَّغيرُ صارِخًا:

- يا أَبي.. يا أَبي أَدْرِكْ أَخي الصَّغيرَ «مُحَمَّدًا».

قالَ الْأَبُ:

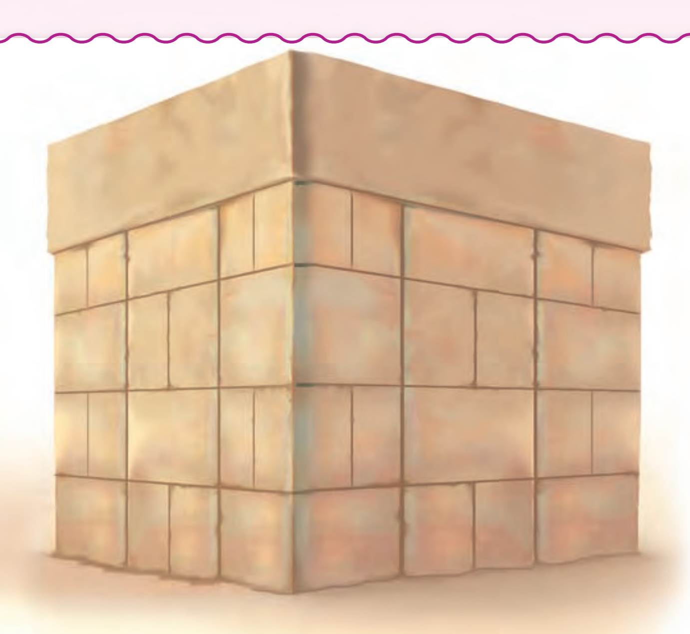
- ماذا حَدَثَ؟ تَكَلَّمْ.

قالَ الطِّفْلُ:

- أَتَى رَجُلانِ، فَأَرْقَداهُ، وَشَقَّا بَطْنَهُ، وَلا أَدْري ما صَنَعا بِهِ، فَقَدْ أَتَيْتُ لَكُما أَسْتَنْجِدُ بِكُما.

نَظَرَ «الْحارِثُ» إِلَى الطِّفْلِ الصَّغيرِ «مُحَمَّدٍ»، فَوَجَدَ لَوْنَهُ مُتَغَيِّرًا، فَقالَ لِزَوْجَتِهِ:

- فَلْنُعِدْهُ إِلَى أَهْلِهِ قَبْلَ أَنْ يُصيبَهُ مَكْروهٌ أَوْ يَموتَ عِنْدَنا.



فِي «مَكَّةَ» لَـمْ تَجِدْ «حَلِيمَةُ» بُدًّا مِنْ أَنْ تَقُصَّ عَلَى «آمِنَةَ بِنْتِ وَهْبٍ» مَا حَدَثَ، وَهِيَ تَعْتَذِرُ وَتَقُولُ:

- لَمْ نُقَصِّرْ فِي رِعَايَتِهِ يَا أُمَّ «مُحَمَّدٍ».

ابْتَسَمَتْ «آمِنَةُ» وَقَالَتْ لَهَا:

- لَا تَخَـافِي عَلَيْهِ، إِنَّ لِابْنِي هَذَا شَـأْنًا، فَلَمْ أَحْمِـلْ حَمْلًا كَانَ أَخَفَّ عَلَيَّ وَلَا أَعْظَمَ بَرَكَةً مِنْهُ، ثُمَّ رَأَيْتُ نُورًا كَأَنَّهُ شِهَابٌ خَرَجَ مِنِّي حِينَ وَضَعْتُـهُ، فَمَا وَقَعَ كَمَا يَقَـعُ الصِّبْيَانُ، وَإِنَّمَا وَقَـعَ وَاضِعًا يَدَهُ عَلَى الْأَرْضِ، رَافِعًا رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ.

ظَلَّتْ «حَلِيمَةُ» خَمْسِـينَ عَامًا وَهِيَ تَتَذَكَّرُ مَا حَدَثَ، حَتَّى عَلِمَتْ بِأَنَّ ابْنَهَا مِنَ الرَّضَاعَةِ «مُحَمَّدًا» قَدْ صَارَ نَبِيًّا وَرَسُـولَ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَأَسْرَعَتْ إِلَيْهِ مُعْلِنَةً إِسْلَامَهَا، وَحَكَتْ قِصَّتَهُ مَعَهَا.

خَوْلَةُ بِنْتُ الْأَزْوَرِ

(الْقَائِدُ الْمُلَثَّمُ)

بَيْنَمَا كَانَتِ الْمَعْرَكَةُ مُشْتَدَّةً بَيْنَ الْجَيْشِ الْإِسْلَامِيِّ وَجَيْشِ الرُّومِ عَلَى حُدُودِ الشَّامِ، كَانَتْ «خَوْلَةُ بِنْتُ الْأَزْوَرِ» مَعَ نِسَاءِ الْمُسْلِمِينَ يَقُمْنَ بِعِلَاجِ الْمُصَابِينَ فِي الْمَعْرَكَةِ وَتَوْفِيرِ الْمَاءِ لِلْفُرْسَانِ، وَتَشْجِيعِ الْمُقَاتِلِينَ بِالْأَنَاشِيدِ الَّتِي تَدْعُو لِلْحَمَاسَةِ.

فَجْأَةً أَقْبَلَ جُنْدِيٌّ مُسْرِعًا، وَأَخْبَرَ «خَوْلَةَ» بِأَنَّ أَخَاهَا قَدْ وَقَعَ أَسِيرًا فِي أَيْدِي الرُّومِ. فَصَرَخَتْ:

- أَخِي، أَنَا فِدَاؤُكَ يَا أَخِي.

وَهَبَّتْ وَاقِفَةً، وَأَسْرَعَتْ إِلَى خَيْمَةٍ مُجَاوِرَةٍ بَاكِيَةَ الْعَيْنَيْنِ، بَيْنَمَا الْجُنْدِيُّ يَصِيحُ وَرَاءَهَا بِأَنَّ الْقِتَالَ تَوَقَّفَ سَاعَةً؛ لِيَسْتَرِيحَ الْجُنُودُ فَقَطْ، وَلَمْ تَنْتَهِ الْمَعْرَكَةُ بَعْدُ. غَيْرَ أَنَّهَا لَمْ تَسْتَمِعْ إِلَيْهِ.

وَمَا إِنْ بَدَأَ الْقِتَالُ مِنْ جَدِيدٍ حَتَّى فُوجِئَ الرُّومُ بِمُقَاتِلٍ مُلَثَّمٍ، لَا تَظْهَرُ مِنْهُ إِلَّا عَيْنَاهُ فَقَطْ، يَشُقُّ الصُّفُوفَ، وَيَضْرِبُ بِسَيْفِهِ فَيُسْقِطُ الْعَشَرَاتِ مِنْ جَيْشِ الرُّومِ قَتْلَى وَجَرْحَى، فَأَمَرَ قَائِدُ الرُّومِ جُنُودَهُ بِمُحَاصَرَةِ الْفَارِسِ الْمُلَثَّمِ، وَإِحْضَارِهِ حَيًّا مَهْمَا كَانَ الثَّمَنُ؛ لِأَنَّهُ «خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ» قَائِدُ الْمُسْلِمِينَ، وَإِذَا وَقَعَ فِي الْأَسْرِ، فَسَيَكُونُ ذَلِكَ عَارًا كَبِيرًا



عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَهَزِيمَةً سَاحِقَةً لِجَيْشِهِمْ.

هَجَمَ جُنُودُ الرُّومِ عَلَى الْجُنْدِيِّ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ، وَحَاصَرُوهُ، وَأَخَذُوهُ حَيًّا إِلَى قَائِدِهِمْ.

تَهَلَّلَ وَجْهُ قَائِدِ الرُّومِ، وَقَالَ مَزْهُوًّا:

- هَا أَنْتَ قَدْ وَقَعْتَ أَسِيرًا فِي يَدِي يَا «ابْنَ الْوَلِيدِ».

وَأَشَارَ إِلَى أَحَدِ حُرَّاسِهِ لِيَضْرِبَهُ بِالسَّيْفِ. وهُنَا سَمِعَ الْجَمِيعُ صَوْتَ امْرَأَةٍ تَقُولُ:

- أَنَا لَسْتُ «ابْنَ الْوَلِيدِ»، أَنَا «خَوْلَةُ بِنْتُ الْأَزْوَرِ» مِنْ كِرَامِ الْعَرَبِ، وَلَمْ أُطِقْ أَنْ يَقَعَ أَخِي فِي الْأَسْرِ .

صَرَخَ قَائِدُ الرُّومِ فِي جُنُودِهِ:

- امْرَأَةٌ؟! كُلُّ هَذِهِ الشَّجَاعَةِ فِي الْقِتَالِ مِنِ امْرَأَةٍ ؟! خُذُوهَا مِنْ أَمَامِي، وَضَعُوهَا فِي خَيْمَةِ الْأَسِيرَاتِ.

فِي الْمَسَاءِ وَجَدَتْ «خَوْلَةُ» نَفْسَهَا أَسِيرَةً مَعَ مَجْمُوعَةٍ مِنَ النِّسَاءِ الْمُسْلِمَاتِ فِي خَيْمَةٍ، وَيَقِفُ عَلَى حِرَاسَتِهِنَّ بَعْضُ الْجُنُودِ، فَهَمَسَتْ فِي أُذُنِ النِّسَاءِ وَاحِدَةً وَاحِدَةً:

- إِنَّ جُنُودَ الْحِرَاسَةِ لا يَخَافُونَ مِنَّا؛ لِأَنَّنَا فِي نَظَرِهِمْ نِسَاءٌ ضَعِيفَاتٌ، فَعَلَيْنَا أَنْ نَخْلَعَ أَعْمِدَةَ الْخِيَامِ، وَأَنْ نَضْرِبَ بِهَا جُنُودَ الْحِرَاسَةِ عِنْدَمَا تَبْدَأُ الْمَعْرَكَةُ وَيَنْشَغِلُ الْجَمِيعُ فِي الْحَرْبِ.

فِي الصَّبَاحِ وَعِنْدَمَا اشْتَدَّتِ الْمَعْرَكَةُ هَجَمَتْ كُلُّ امْرَأَةٍ عَلَى عَمُودٍ لِلْخَيْمَةِ فَاقْتَلَعَتْهُ، وَهَجَمْنَ جَمِيعًا عَلَى جُنُودِ الْحِرَاسَةِ الَّذِينَ فُوجِئُوا بِمَا فَعَلَتْهُ النِّسْوَةُ، فَفَرُّوا هَارِبِينَ، وَتَمَكَّنَتِ النِّسَاءُ مِنَ الْهَرَبِ مِنْ

مُعَسْكَرَاتِ الْأَسْرَى، وَعُدْنَ إِلَى خِيَامِ نِسَاءِ الْمُسْلِمِينَ.

وَعِنْدَمَا عَلِمَ جُنُودُ الْمُسْلِمِينَ بِمَا فَعَلَتْهُ «خَوْلَةُ»، زَادَتِ الْحَمَاسَةُ فِي قُلُوبِهِمْ، وَأَصَرُّوا عَلَى الاسْتِمْرَارِ فِي الْمَعْرَكَةِ؛ حَتَّى يَتِمَّ فَتْحُ الشَّامِ وَعَوْدَةُ الْأَسْرَى.

لَمْ تَمْضِ أَيَّامٌ حَتَّى سَمِعَتْ «خَوْلَةُ» صَوْتَ أَخِيهَا «ضِرَارٍ» يُنَادِيهَا مِنْ خَارِجِ الْخَيْمَةِ، فَخَرَجَتْ تَجْرِي نَاحِيَتَهُ، فَوَجَدَتْهُ قَادِمًا مَعَ الْقَائِدِ «خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ»، فَاحْتَضَنَتْهُ وَهِيَ تَشْكُرُ اللهَ عَلَى عَوْدَتِهِ سَالِمًا، وَقَدَّمَتْ شُكْرَهَا لِلْقَائِدِ «خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ» الَّذِي أَعَادَ إِلَيْهَا أَخَاهَا.

فَقَالَ لَهَا «خَالِدٌ»:

- بَلِ الشُّكْرُ لَكِ وَلِنِسَاءِ الْمُسْلِمِينَ؛ لِأَنَّكُنَّ شَجَّعْتُنَّ الرِّجَالَ عَلَى النَّصْرِ، وَأَثْبَتُّنَّ أَنَّ النِّسَاءَ شَقَائِقُ الرِّجَالِ.

رَابِعَةُ الْعَدَوِيَّةُ

(الْهُدَى بَعْدَ الضَّلَالِ)

كَمَـا هُوَ الْحَالُ فِي كُلِّ مَدِينَةٍ، تَنْقَسِـمُ أَحْوَالُ النَّـاسِ إِلَى عَالَمَيْنِ: عَالَـمِ الْأَغْنِيَاءِ، وَعَالَمِ الْفُقَرَاءِ. وَبَيْنَ هَذَيْنِ الْعَالَمَيْنِ يُوجَدُ عَالَمٌ ثَالِثٌ يَلْتَقِي فِيهِ الاثْنَانِ هُوَ عَالَمُ اللَّهْـوِ وَالْمُجُونِ وَالْخَلَاعَةِ، فَيَأْتِي الْأَغْنِيَاءُ لِلاسْـتِمْتَاعِ، وَيَأْتِي الْفُقَرَاءُ وَالْعَبِيدُ وَالْإِمَاءُ لِتَسْـلِيَةِ السَّادَةِ وَإِنْعَاشِهِمْ بِالْقِصَصِ وَالْغِنَاءِ وَالرَّقْصِ وَالْمُوسِيقَى.

هَكَـذَا كَانَتِ الْأَحْـوَالُ فِي مَدِينَةِ الْبَصْرَةِ عِنْدَمَا عَـادَ الرَّجُلُ الْفَقِيرُ الْمُعْدَمُ «إِسْمَاعِيلُ الْعَدَوِيُّ» إِلَى كُوخِهِ الْفَقِيرِ، لِيَجِدَ زَوْجَتَهُ تَتَلَوَّى مِنَ الْأَلَمِ ، فَهِيَ فِي شَهْرِهَا التَّاسِعِ وَتُعَانِي آلَامَ الْوِلَادَةِ.

شَـكَا الرَّجُلُ هُمُومَهُ إِلَى اللهِ، وَدَعَا رَبَّهُ أَنْ يَرْزُقَهُ وَلَدًا يُسَـاعِدُهُ عَلَى أَعْبَاءِ الْحَيَاةِ؛ فَلَدَيْهِ ثَلَاثُ بَنَاتٍ. وَمِنْ شِـدَّةِ إِرْهَاقِهِ وَتَعَبِهِ نَتِيجَةَ عَمَلِهِ طَوَالَ الْيَوْمِ نَامَ الرَّجُلُ، وَاسْـتَيْقَظَ عَلَى صَوْتِ جَارَتِهِ الَّتِي سَـاعَدَتْ زَوْجَتَهُ فِي وِلَادَتِهَا تُخْبِرُهُ بِأَنَّهُ قَدْ رُزِقَ بِـ «رَابِعَةَ»..

بَكَى الرَّجُلُ حُزْنًا عَلَى عَدَمِ إِنْجَابِهِ وَلَدًا يُسَاعِدُهُ فِي الْحَيَاةِ، وَنَامَ بَاكِيًا.

وَقُبَيْلَ الْفَجْرِ رَأَى الرَّجُلُ فِي مَنَامِهِ الرَّسُولَ ﷺ يَقُولُ لَهُ:

- إِنَّ هَذِهِ الْبِنْتَ سَـتَكُونُ جَلِيلَةَ الْقَدْرِ، وَإِنَّ سَبْعِينَ مِنْ أُمَّتِي لَيَرْجُونَ شَفَاعَتَهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ.



سَــعِدَ الرَّجُلُ بِمَا رَأَى، وَذَهَبَ إِلَى زَوْجَتِهِ لِيُبَشِّرَها بِما رآهُ في الْمَنام.

بَدَأَتِ الطِّفْلَةُ تَكْبَرُ شَــيْئًا فَشَــيْئًا في هَذَا الْكُوخِ الْفَقِيرِ، وَكَانَــتْ تَتَرَدَّدُ عَلَى الْمَسْــجِدِ وَتَحْفَظُ الْقُرْآنَ حَتَّى إِنَّهَــا حَفِظَتْهُ وَهِيَ صَغِيرَةٌ لَمْ تَتَجَاوَزْ عَشْرَ سَنَوَاتٍ.. فَاسْتَبْشَرَ الأَبُ، وَلكِنْ فَجْــأَةً ماتَتِ الأمُّ، ومَرِضَ الأَبُ، وتَشَتَّتَ شَمْلُ الْأُسْرَةِ بَعْدَ رَحيلِ أَخَواتِها

مَعَ أَزْواجِهِنَّ، وَلَمْ تَجِدْ «رَابِعَةُ» غَيْرَ أَنْ تَرْعَى بَعْضَ الشِّـيَاهِ وَالْخِرَافَ لأَحَدِ الرِّجَالِ، وَمَعَ الرُّعَاةِ تَعَلَّمَتْ «رَابِعَةُ» الْعَزْفَ عَلَى النَّايِ وَالْغِنَاءَ.

وَذَاتَ يَوْمٍ سَمِعَهَا رَجُلٌ يَمْتَلِكُ مَلْهًى فِي الْبَصْرَةِ، فَأَخَذَهَا مِنْ وَالِدِهَا مُقَابِلَ عِدَّةِ دِينَارَاتٍ؛ لِيَسْتَأْجِرَهَا فِي الْمَلْهَى الَّذِي يَمْتَلِكُهُ!

وَانْقَسَـمَتْ حَيَاةُ «رَابِعَةَ» إِلَى عَالَمَيْنِ: عَالَمٍ تُقَـدَّمُ فِيهِ الْخَمْرَ لِرُوَّادِ الْمَلْهَى، وَعَالَمٍ تُقَدِّمُ للهِ فِيـهِ أَرَقَّ الدَّعَوَاتِ وَأَصْدَقَ الدُّمُوعِ، وَتَدْعُوهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهَا مِمَّا هِيَ فِيهِ.

ذَاتَ يَوْمٍ رَآهَا وَسَمِعَهَا سَـيِّدُهَا مِنْ ثُقْبِ بَابِ حُجْرَتِهَا تُنَاجِي رَبَّهَا، فَاسْتَشَـاطَ غَضَبًا مِنْ كَلَامِهَا، وَأَدْرَكَ أَنَّ «رَابِعَةَ» الَّتِي تَجْلُبُ لَهُ الْأَمْوَالَ الْكَثِيرَةَ فِي الْمَلْهَى رُبَّمَا تَهْرُبُ، فَحَبَسَـهَا فِي حُجْـرَةٍ لَا تَرَى فِيهَا أَحَدًا، وَجَعَلَهَا تَعِيشُ فِي ظَـلَامٍ دَامِسٍ، وَبَيْنَمَا هُوَ يُرَاقِبُهَا رَأَى مِصْبَاحًا يُضِيءُ حُجْرَتَهَا، بَـلْ وَجَـدَهَا تَـأْكُلُ فَوَاكِهَ لَمْ تَكُنْ سَاعَتَهَا مَوْجُودَةً بِالْأَسْوَاقِ، فَشَـعَرَ أَنَّ مَلَائِكَةً تَحُفُّ بِهَا؛ لأَنَّهَا فِي مَجْلِسِ عِلْمٍ وَقِرَاءَةِ قُرْآنٍ. فَخَافَ الرَّجُلُ مِنَ اللهِ، وَأَعْتَقَهَا وَتَرَكَهَا لِتَعْبُدَ اللهَ فِي كَهْفٍ بَعِيدٍ عَنِ النَّاسِ..

ظَلَّتْ «رَابِعَةُ الْعَدَوِيَّةُ» خَائِفَةً مِنْ عِقَابِ اللهِ، وَظَلَّتْ تَدْعُوهُ أَنْ يَغْفِرَ لَهَا، وَظَلَّـتْ تَتْلُو الْقُرْآنَ، وَتُقِيمُ اللَّيْلَ، وَتَصُومُ النَّهَارَ رَاجِيَةً مِنَ اللهِ أَنْ يَتَقَبَّلَهَا قَبُولًا حَسَنًا بَعْدَ أَنْ عَرَفَتْ طَرِيقَ الرَّشَادِ.

نَمَاذِجُ تُرَاثِيَّةٌ

إِيَاح حُتُب

(أُمُّ الْبَطَلِ أَحْمُسَ)

دَخَلَ الْفَتَى «أَحْمُسُ» عَلَى أُمِّهِ «إِيَاح حُتُـب» مُرْهَقًا، وَدَخَلَ وَرَاءَهُ الْقَائِدُ الْعَسْكَرِيُّ الْعَجُوزُ الَّذِي كَلَّفَتْهُ «إِيَاح حُتُب» بِتَدْرِيبِ «أَحْمُس» عَلَى فُنُونِ الْقِتَالِ وَقِيَادَةِ الْجَيْشِ.

كَانَتِ الْأُمُّ تَجْلِسُ مَعَ مَجْمُوعَةٍ مِنْ شُـيُوخِ الْقُرَى الْبَعِيدَةِ، تَشْرَحُ لَهُمْ مَا يَجْرِي الْآنَ فِي سَـاحَةِ الْمَعْرَكَةِ فِي شَمَالِ مِصْرَ، وَأَطْلَعَتْهُمْ عَلَى آخِـرِ أَخْبَارِ الْمَعَارِكِ الَّتِي يَقُودُهَا ابْنُهَا الْكَبِيـرُ «كَامُوس» ضِدَّ الْغُزَاةِ الْهُكْسُوسِ، ثُمَّ قَالَتْ لَهُمْ:

- أَرْجُو أَنْ تَجْمَعُوا أَكْبَرَ عَدَدٍ مِنَ الشَّبَابِ مِنَ الْقُرَى وَالْمُدُنِ الْمُجَاوِرَةِ؛ حَتَّى نُرْسِـلَهُمْ مَدَدًا لِجَيْشِنَا الَّذِي يُقَاتِلُ فِي شَمَالِ مِصْرَ؛ فَقَدْ أَرْسَلَ ابْنِي «كَامُوس» مُنْذُ يَوْمَيْنِ يَطْلُبُ إِمْـدَادَاتٍ عَاجِلَةً؛ نَظَرًا لِصُعُوبَةِ الْمَعْرَكَةِ. أَمَّا أَنْتَ أَيُّهَا الْقَائِدُ الْعَجُوزُ فَعَلَيْكَ أَنْ تَبْذُلَ الْجُهْدَ الْكَبِيرَ فِي تَدْرِيبِهِمْ فِي أَسْرَعِ وَقْتٍ.

قَالَ الْقَائِدُ الْعَجُوزُ:

- سَـأَنْتَهِي مِنْ تَدْرِيبِهِمْ فِي أَسْـرَعِ وَقْتٍ، فَكَمَا دَرَّبْتُ مَوْلَانَا الصَّغِيرَ «أَحْمُسَ» عَلَى الْقِتَالِ سَأُدَرِّبُهُمْ.

هُنَا قَالَ «أَحْمُسُ» وَالسَّعَادَةُ وَالثِّقَةُ تَغْمُرُ عَيْنَيْهِ:

ـ أَشْـتَاقُ يَا أُمِّي إِلَى أَنْ أَكُونَ مَعَ أَخِـي «كَامُوس» فِي الْمَعْرَكَةِ، فَمَتَى سَأَذْهَبُ إِلَيْهِ فِي الشَّمَالِ؟

قَبْلَ أَنْ تُجِيبَ الْأُمُّ عَنْ سُؤَالِهِ دَخَلَ جُنْدِيٌّ بَاكِيًا مُضْطَرِبًا، فَأَدْرَكَتِ الْمَلِكَةُ أَنَّ هُنَاكَ خَبَرًا غَيْرَ سَارٍّ أَتَى مِنَ الْجَيْشِ.. قَالَتِ الْمَلِكَةُ:

ـ تَكَلَّمْ أَيُّهَا الْجُنْدِيُّ.. مَاذَا حَدَثَ؟



قَالَ الْجُنْدِيُّ:

- الْمَعْرَكَةُ يَا سَيِّدَتِي تَسِيرُ عَلَى مَا يُرَامُ، إِنَّنَا نَتَقَدَّمُ كُلَّ يَوْمٍ وَنَهْزِمُ الْهُكْسُوسَ، وَنَجْلُوهُمْ عَنِ الْمُدُنِ الْمِصْرِيَّةِ مَدِينَةً وَرَاءَ مَدِينَةٍ .. لَكِنْ هُنَاكَ خَبَرٌ سَيِّءٌ يَا سَيِّدَتِي لا أَعْرِفُ كَيْفَ أَقُولُهُ لَكِ.

قَالَتِ الْمَلِكَةُ:

- تَكَلَّمْ، هَلْ أُصِيبَ ابْنِي «كَامُوس»؟

قَالَ الْجُنْدِيُّ:

- لَا .. بَلْ .. بَلِ اسْتُشْهِدَ يَا سَيِّدَتِي.

جَلَسَتِ الْمَلِكَةُ عَلَى كُرْسِيِّهَا مُنْهَارَةً لِدَقَائِقَ، ثُمَّ مَسَحَتْ دُمُوعَهَا، وَهَبَّتْ وَاقِفَةً وَقَالَتْ:

- أَيُّهَا الشُّيُوخُ، أَيُّهَا الْجُنُودُ، لَنْ تَنْثَنِيَ عَزِيمَتُنَا عَنْ قِتَالِ الْهُكْسُوسِ الْمُحْتَلِّينَ لِبِلَادِنَا، وَيَكْفِينِي فَخْرًا أَنَّنِي أُمُّ أَوَّلِ شَهِيدٍ مِصْرِيٍّ دِفَاعًا عَنِ الْوَطَنِ الْوَاحِدِ شَمَالِهِ وَجَنُوبِهِ. وَإِذَا كَانَ الْأَعْدَاءُ قَدْ قَتَلُوا وَلَدِي «كَامُوس»، فَإِنَّنِي سَأُقَدِّمُ ابْنِي «أَحْمُس» لِقِيَادَةِ الْجَيْشِ.

اشْتَعَلَتِ الْحَمَاسَةُ فِي قَلْبِ الشُّيُوخِ، وَقَالُوا:

- نَحْنُ يَا سَيِّدَتِي سَنَجْمَعُ الْإِمْدَادَاتِ وَنُجَهِّزُ الْجَيْشَ خِلَالَ يَوْمَيْنِ فَقَطْ.

اتَّجَهَ الْجَيْشُ بَعْدَ تَجْهِيزِهِ بِقِيَادَةِ «أَحْمُس» شَمَالًا إِلَى الدِّلْتَا حَتَّى دَخَلَ مَدِينَةَ «أَوَارِيسَ» عَاصِمَةَ الْهُكْسُوسِ. وَهَرَبَ الْهُكْسُوسُ مِنْهَا إِلَى

الشَّرْقِ حَتَّى وَصَلُوا إِلَى «سَيْنَاءَ»، فَتَتَبَّعَهُمْ «أَحْمُسُ» حَتَّى أَجْلَاهُمْ عَنْ «سَيْنَاءَ»، وَاتَّجَهُوا شَمَالًا إِلَى «فِلَسْطِينَ»، فَظَلَّ وَرَاءَهُمْ حَتَّى أَجْلَاهُمْ نِهَائِيًّا عَنْ حُدُودِ «مِصْرَ».

عَادَ «أَحْمُسُ» إِلَى أُمِّـهِ «إِيَاح حُتُب» رَافِعًا رَايَةَ النَّصْرِ، فَاسْـتَقْبَلَتْهُ اسْتِقْبَالًا رَائِعًا، وَقَالَتْ:

- إِنَّنِي فَخُورَةٌ بِأَنْ قَدَّمْتُ لِمِصْرَ أَوَّلَ شَـهِيدٍ، وَأَوَّلَ مُحَرِّرٍ لِتُرَابِهَا مِنَ الْغُزَاةِ الْمُعْتَدِينَ.



حَتْشِبْسُوت

(مَلِكَةُ التَّشْيِيدِ وَالْبِنَاءِ)

فِي لَيْلَةٍ شِتْوِيَّةٍ مُمْطِرَةٍ، كَانَ الْحُزْنُ يُخَيِّمُ عَلَى أَرْجَاءِ الْقَصْرِ الْمَلَكِيِّ، وَقَدْ دَخَلَتِ الْأَمِيرَةُ «حَتْشِبْسُوت» إِلَى زَوْجِهَا الْمَرِيضِ الرَّاقِدِ عَلَى فِرَاشِ الْمَوْتِ «تُحُتْمُس الثَّانِي»، فَلَمَحَتْ مَا فِي عَيْنَيْهِ مِنْ أَلَمٍ وَحُزْنٍ عَلَى الْبِلَادِ وَمُسْتَقْبَلِهَا، فَقَالَتْ لَهُ:

- لَا تَبْتَئِسْ يَا مَوْلَايَ؛ فَلِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ، وَجَمِيعُ الْآلِهَةِ تُحِيطُكَ بِالْأَمْنِ وَالرِّعَايَةِ..

رَدَّ الْمَلِكُ «تُحُتْمُس الثَّانِي» قَائِلًا:

- تَمَنَّيْتُ أَنْ يَطُولَ عُمْرِي حَتَّى يَكْبَرَ ابْنِي «تُحُتْمُس الثَّالِثُ» وَيَتَوَلَّى الْحُكْمَ؛ فَهُوَ الْوَرِيثُ الشَّرْعِيُّ لِي.

قَالَتْ «حَتْشِبْسُوت» فِي ثِقَةٍ:

- لَا تَقْلَقْ يَا زَوْجِيَ الْحَبِيبَ، سَأَطْلُبُ مِنْ جَمِيعِ الْكَهَنَةِ الدُّعَاءَ لَكَ بِالْحِمَايَةِ مِنْ كُلِّ شَرٍّ.

وَقَدَّمَتْ لَهُ الدَّوَاءَ، وَذَهَبَتْ حَزِينَةً إِلَى غُرْفَتِهَا؛ فَزَوْجُهَا الْمَرِيضُ يَبْدُو أَنَّهُ لَنْ يُشْفَى، وَالْوَرِيثُ الشَّرْعِيُّ لِلْحُكْمِ لَا يَزَالُ صَغِيرًا، وَالْبِلَادُ تَحْتَاجُ إِلَى قَائِدٍ ذِي خِبْرَةٍ..

وَبَعْدَ عِدَّةِ أَيَّامٍ اسْــتَأْذَنَ كَبِيرُ الْأَطِبَّاءِ، وَدَخَلَ عَلَى «حَتْشِبْسُــوت»، وَنَقَلَ إِلَيْهَا خَبَرَ مَوْتِ الْمَلِكِ «تُحُتْمُس الثَّانِي». فَقَالَتْ لَهُ:

- أَرْجُو مِنْكَ يَا كَبِيرَ الْأَطِبَّاءِ أَنْ تَهْتَمَّ بِجُثَّةِ مَوْلَانَا الْمَلِكِ، وَتَحْفَظَهَا فِي الْمَعْبَدِ؛ لِكَيْ يَنْعَمَ بِالْخُلُودِ.

ثُمَّ اسْــتَدْعَتِ الْمَلِكَةُ «حَتْشِبْسُوت» كَبِيرَ الْكَهَنَةِ، وَأَفْهَمَتْهُ مَا كَانَتْ تُفَكِّرُ فِيهِ؛ فَقَالَتْ لَهُ:



- إِنَّنِي - كَمَا تَعْلَمُ - الابْنَةُ الْكُبْرَى لِفِرْعَوْنِ مِصْــرَ الْمَلِكِ «تُحُتْمُــس الْأَوَّلِ»، وَلَدَيَّ خِبْرَةٌ كَبِيرَةٌ فِي قِيَادَةِ الْبِــلَادِ، فَعَلَيْكُــمْ أَنْ تُسَاعِدُونِي فِي أَنْ أَسْتَمِرَّ فِي قِيَادَتِهَــا، حَتَّى يَكْبَــرَ «تُحُتْمُس الثَّالِثُ»، عَلَيْكُمْ أَنْ تُخْبِرُوا الشَّعْبَ بِأَنَّنِي ابْنَةُ الْإِلَهِ آمُونَ، فَأَنَا لَسْــتُ امْــرَأَةً عَادِيَّةً مِثْلَ بَاقِي النِّسَــاءِ، وَلَكِنَّنِي أَنْتَمِي لِلْآلِهَةِ!

وَافَقَ كَبِيــرُ الْكَهَنَــةِ. وَبَعْدَ عِدَّةِ أَشْهُرٍ كَانَتِ الْمَلِكَةُ «حَتْشِبْسُوت»

قَـدْ أَقْنَعَتِ الْمُعَارِضِينَ لَهَا أَنَّ الْمَرْأَةَ يُمْكِـنُ أَنْ تَتَوَلَّى أُمُورَ الْبِلَادِ مِثْلَ الرَّجُـلِ، وَأَنَّ الْمُهِمَّ الْقُدْرَةُ عَـلَى الْقِيَادَةِ وَالْحُكْـمِ وَإِنْجَازِ الْأَعْمَالِ، فَأَعْطَاهَا الشَّعْبُ طَاعَتَهُ وَنَهَضَ مَعَهَا.

وذَاتَ يَـوْمِ اجْتَمَعَتِ الْمَلِكَـةُ مَعَ وُزَرَائِهَا وَمُهَنْدِسِـيهَا، وَأَخَذَتْ تَسْمَعُ مِنْهُمْ خُطَّةَ النُّهُوضِ بِالْبِلَادِ، ثُمَّ أَمَرَتْهُمْ بِتَأْمِينِ الطُّرُقِ وَالْحُدُودِ، خَاصَّةً الْحُدُودَ الشَّرْقِيَّةَ؛ فَمِنْهَا يَأْتِي الْخَطَرُ، وَأَمَرَتْ بِتَجْهِيزِ عِدَّةِ بَعْثَاتٍ تِجَارِيَّةٍ إِلَى بِـلَادِ «بُونْت»؛ لِكَيْ يُصَدِّرُوا إِلَيْهَـا الْمُنْتَجَاتِ الْمِصْرِيَّةَ، وَيُحْضِرُوا مِنْ هُنَاكَ الْأَخْشَابَ وَالْأَحْجَارَ الْكَرِيمَةَ وَالْعَاجَ وَالْجُلُودَ.

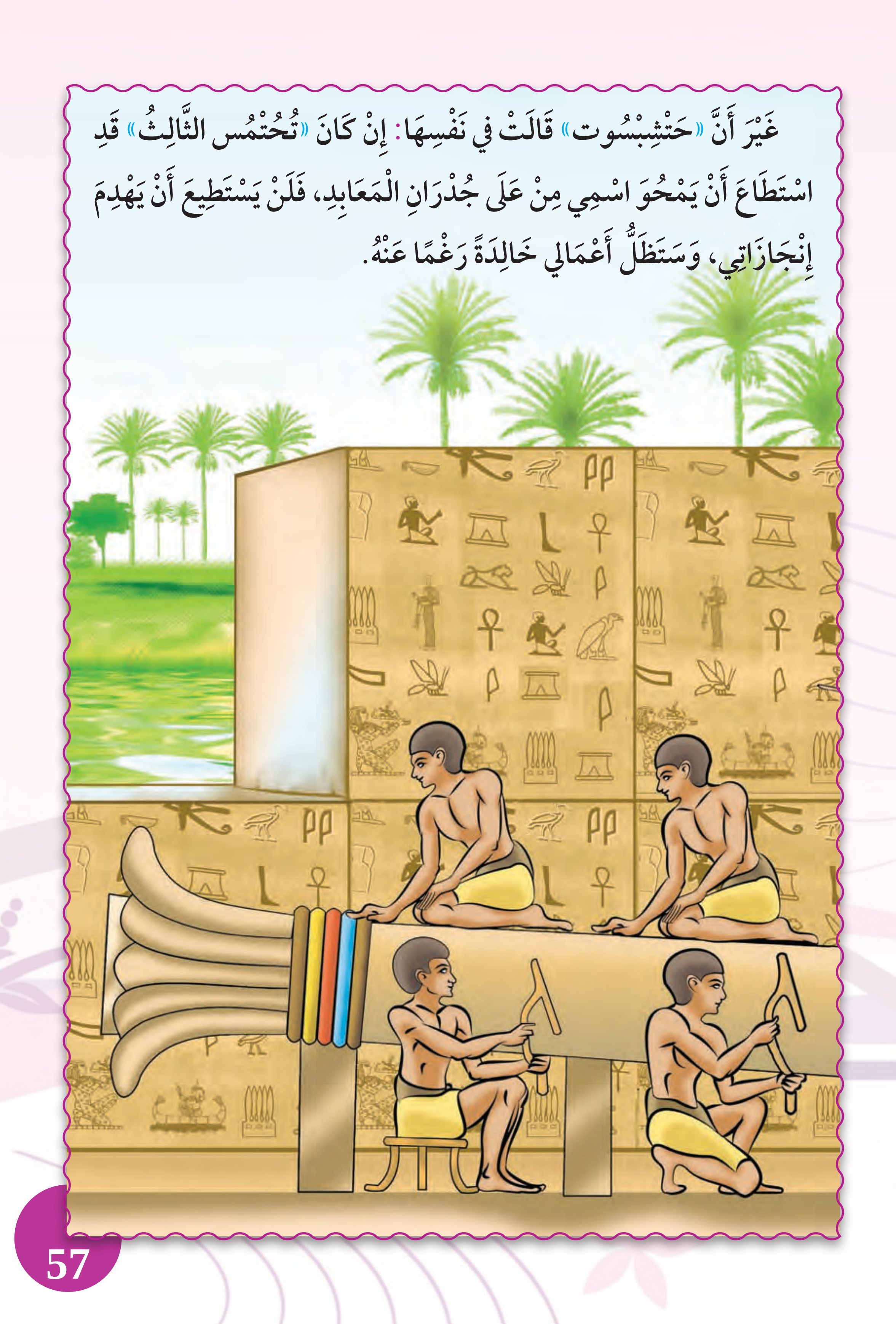
كَمَا اطَّلَعَتْ «حَتْشِبْسُـوت» عَلَى الْخَرَائِطِ وَالرُّسُـومِ الْخَاصَّةِ بِبِنَاءِ مَعْبَدَيْنِ وَمِسَلَّتَيْنِ، وَسَمَّتِ الْمَعْبَدَ الْأَوَّلَ «الدِّيرَ الْبَحْرِيَّ»، أَمَّا الْمَعْبَدُ الثَّانِي فَسَمَّتْهُ مَعْبَدَ «الْكَرْنَك». وَقَالَ كَبِيرُ الْكُتَّابِ:

- اسْـمَحِي لِي - يَا مَوْلَاتِي - أَنْ أَسْـتَدْعِيَ الْكُتَّـابَ وَالْفَنَّانِينَ لِنَقْشِ جِدَارِيَّاتٍ عَنْ عَهْدِكِ السَّعِيدِ.. عَهْدِ الْبِنَاءِ وَالرَّخَاءِ وَالتَّشْيِيدِ.

اسْتَمَرَّتِ «حَتْشِبْسُوت» فِي الْحُكْمِ ثَلَاثِينَ عَامًا حَتَّى كَبِرَ «تُحُتْمُس الثَّالِثُ»، فَتَسَلَّمَ مَقَالِيدَ الْحُكْمِ مِنْهَا.

اغْتَـاظَ «تُحُتْمُـس الثَّالِثُ» مِـنْ كُلِّ إِنْجَازَاتِهَا، وَأَمَـرَ بِمَحْوِ كُلِّ الْكِتَابَاتِ التَّارِيخِيَّةِ الَّتِي تَصِفُ أَعْمَالَهَا مِنْ عَلَى جُدْرَانِ الْمَعَابِدِ؛ حَتَّى لَا يَكُونَ لَهَا أَثَرٌ وَلَا يَذْكُرَهَا التَّارِيخُ!

غَيْرَ أَنَّ «حَتْشِبْسُوت» قَالَتْ في نَفْسِهَا: إِنْ كَانَ «تُحُتْمُس الثَّالِثُ» قَدِ اسْتَطَاعَ أَنْ يَمْحُوَ اسْمِي مِنْ عَلَى جُدْرَانِ الْمَعَابِدِ، فَلَنْ يَسْتَطِيعَ أَنْ يَهْدِمَ إِنْجَازَاتِي، وَسَتَظَلُّ أَعْمَالِي خَالِدَةً رَغْمًا عَنْهُ.



نِفِرْتِيتِي

(الدَّاعِيَةُ لِعِبَادَةِ إِلَهٍ وَاحِدٍ أَحَدٍ)

أَفَاقَتِ الْعَرُوسُ الْجَدِيدَةُ الْجَمِيلَــةُ «نِفِرْتِيتِي» مِنْ نَوْمِهَا، فَوَجَدَتْ نَفْسَــهَا فِي قَصْرِ زَوْجِهَا «إِخْنَاتُون» الَّذِي تَزَوَّجَهَا بِالْأَمْسِ، وَكَانَ يَوْمُ زَوَاجِهَا يَوْمًا مَشْهُودًا.

نَهَضَتْ وَفَتَحَتْ شُبَّاكَ حُجْرَتِهَا الْمُطِلَّ عَلَى صَحْنِ الْقَصْرِ الْمَكْشُوفِ لِلسَّمَاءِ، فَرَأَتْ زَوْجَهَا جَالِسًا عَلَى الْأَرْضِ كَأَنَّهُ يَبْكِي! فَهَالَهَا الْمَنْظَرُ، فَذَهَبَتْ إِلَيْهِ، فَوَجَدَتْهُ يُتَمْتِمُ بِكَلِمَاتٍ، وَبَعْدَ أَنْ أَنْهَى كَلِمَاتِهِ، قَالَتْ لَهُ عَرُوسُهُ فِي دَلَالٍ:

- اسْتَيْقَظْتُ فَلَمْ أَجِدْكَ بِجَانِبِي، وَعِنْدَمَا وَجَدْتُكَ تَجْلِسُ عَلَى الْأَرْضِ حَزِينًا جِئْتُ إِلَيْكَ مُسْرِعَةً، فَوَجَدْتُكَ تَقُولُ: «يَا أَيُّهَا الْإِلَهُ الْأَحَدُ الَّذِي لَا يُوجَدُ إِلَهٌ غَيْرُهُ»، وَأَنْتَ تَعْرِفُ أَنَّ لِلْمِصْرِيِّينَ عَشَــرَاتِ الْآلِهَةِ.. فَكَيْفَ تَجْعَلُهُمْ إِلَهًا وَاحِدًا؟!

قَالَ لَهَا «إِخْنَاتُون» وَهُوَ يَصْطَحِبُهَا إِلَى دَاخِلِ الْقَصْرِ:

- يَا عَرُوسَتِي الْجَمِيلَةَ، إِنَّنِي لَا أَعْبُدُ إِلَّا إِلَهًا وَاحِدًا هُوَ الَّذِي خَلَقَ كُلَّ الْمَخْلُوقَاتِ.



قَالَتْ «نِفِرْتِيتِي»:

ـ إِنَّ قَلْبِي يُحَدِّثُنِي بِصِدْقِ مَا تَقُولُ يَا زَوْجِيَ الْحَبِيبَ، وَعَقْلِي يَقُولُ لِي: لَوْ كَانَ هُنَاكَ آلِهَةٌ كَثِيرَةٌ حَقًّا لَفَسَدَ نِظَامُ الْكَوْنِ الْبَدِيعُ.

قَالَ «إِخْنَاتُون»:

ـ هَذِهِ هِيَ أَفْكَارِي وَمُعْتَقَدَاتِي يَا زَوْجَتِي، وَسَأَخُوضُ الْمَعَارِكَ حَتَّى أَرْفَعَ رَايَةَ الْإِلَهِ الْفَرْدِ الْأَحَدِ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ.

قَالَتْ «نِفِرْتِيتِي»:

ـ وَأَنَا مَعَكَ ـ يَا زَوْجِيَ الْحَبِيبَ ـ سَأَرْفَعُ مَعَكَ هَذِهِ الرَّايَةَ.

بَدَأَتْ «نِفِرْتِيتِي» بِمَا لَهَا مِنْ خِبْرَةٍ عَسْكَرِيَّةٍ تَخُوضُ الْحُرُوبَ بِجِوَارِ زَوْجِهَا «إِخْنَاتُون». وَبَدَأَتْ دَعْوَةُ «إِخْنَاتُون» تَنْتَشِرُ بَيْنَ الْمِصْرِيِّينَ، فَغَضِبَ الْكَهَنَةُ الَّذِينَ كَانُوا يَنْتَمُونَ لِآلِهَةٍ مُتَعَدِّدَةٍ مِنْ هَذِهِ الدَّعْوَةِ الْجَدِيدَةِ، الَّتِي سَتَحْرِمُهُمْ مِمَّا كَانُوا يَحْصُلُونَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْوَالٍ وَقَرَابِينَ لِآلِهَتِهِمْ، وَأَحَسُّوا بِالْخَطَرِ. فَتَوَجَّهَ الْكَهَنَةُ إِلَى قَائِدِ الْجُيُوشِ «حُور مُحِب»، وَحَرَّضُوهُ عَلَى أَنْ يَتَوَلَّى الْحُكْمَ وَسَيُسَاعِدُونَهُ عَلَى ذَلِكَ.

وَبِالْفِعْلِ تَمَرَّدَ قَائِدُ الْجُيُوشِ «حُور مُحِب» عَلَى سَيِّدِهِ «إِخْنَاتُون»، وَتَمَكَّنَ مِنْ قَتْلِهِ!

حَزِنَتْ «نِفِرْتِيتِي» لِمَوْتِ زَوْجِهَا، وَحَزِنَتْ أَكْثَرَ عِنْدَمَا قَامَ قَائِدُ الْجُيُوشِ وَكَبِيرُ الْكَهَنَةِ بِاخْتِيَارِ «سِمِنْغ» مَلِكًا لِمِصْرَ، وَكَانَ يُؤْمِنُ بِتَعَدُّدِ

الْآلِهَةِ، وَيَرْفُضُ أَنْ يَكُونَ لِلْكَوْنِ إِلَهٌ وَاحِدٌ، فَظَلَّتْ تَتَحَيَّنُ الْفُرَصَ حَتَّى تَمَكَّنَتْ مِنْ قَتْلِ «سِمِنْغ»، وَاخْتَارَتْ «تُوت عَنْخ آمُون» زَوْجًا لابْنَتِهَا، وَتَوَلَّى بِذَلِكَ «تُوت عَنْخ آمُون» الْحُكْمَ، وَلَكِنَّ كَبِيرَ الْجُنْدِ وَكَبِيرَ الْكَهَنَةِ تَآمَرَا عَلَى «تُوت عَنْخ آمُون» وَقَتَلَاهُ.

لَمْ تَجِدْ «نِفِرْتِيتِي» غَيْرَ أَنْ تُرْسِلَ رَسَائِلَ لِلتَّبْشِيرِ بِقَصِيدَةِ «إِخْنَاتُون» لِمُلُوكِ الشَّرْقِ، تَدْعُوهُمْ لِلْإِيمَانِ بِهَذِهِ الدَّعْوَةِ وَنَبْذِ فِكْرَةِ تَعَدُّدِ الْآلِهَةِ.

وَجَاءَتْ إِلَيْهَا رَسَائِلُ الْمُلُوكِ الْمُعْجَبِينَ بِوَحْدَةِ الْآلِهَةِ، وَمِنْهُمْ مَنْ طَلَبَ مِنْهَا الزَّوَاجَ. وَتَزَوَّجَتْ «نِفِرْتِيتِي» أَحَدَ مُلُوكِ الشَّرْقِ؛ حَتَّى تَسْتَغِلَّ سُلْطَانَهُ فِي نَشْرِ مَا تُؤْمِنُ بِهِ وَتَعْتَقِدُ أَنَّهُ الصَّوَابُ.



بَلْقِيسُ

(بَانِيَةُ الْحَضَارَةِ)

أَمَامَ قَصْرٍ عَظِيمٍ فِي مَدِينَةِ «سَبَأَ» الْيَمَنِيَّةِ، وَقَفَ حَارِسَانِ يَقْطَعَانِ نَوْبَةَ الْحِرَاسَةِ بِحَدِيثٍ خَافِتٍ عَمَّا يَجْرِي دَاخِلَ الْقَصْرِ..

الْأَوَّلُ: مَضَى شَهْرَانِ وَلا يَزَالُ الْحُزْنُ يُخَيِّمُ عَلَى الْقَصْرِ بِسَبَبِ مَرَضِ مَلِكِنَا «الْهَدْهَادِ بْنِ شُرَحْبِيلَ»، وَلَقَدْ سَمِعْتُ أَنَّ الْأَطِبَّاءَ يَئِسُوا مِنْ شِفَائِهِ.. إِنَّهُ لَمْ يُنْجِبْ وَلَدًا لِيَتَوَلَّى الْحُكْمَ بَعْدَهُ. لَمْ يُنْجِبْ غَيْرَ ابْنَتِهِ «بَلْقِيسَ»!

الثَّانِي: اخْفِضْ صَوْتَكَ، فَإِخْوَةُ الْمَلِكِ «الْهَدْهَادِ» وَأَبْنَاءُ عُمُومَتِهِ قَادِمُونَ مِنْ بَعِيدٍ!

فَتَحَ الْحَارِسَانِ بَابَ الْقَصْرِ بِتَرْحَابٍ. وَوَقَفَ الْجَمِيعُ فِي الْبَهْوِ الْمَلَكِيِّ فِي انْتِظَارِ الْمَلِكِ، لَا يَقْطَعُ صَمْتَهُمْ إِلَّا هَمْسٌ جَانِبِيٌّ خَافِتٌ:

- نَحْنُ فِي خَطَرٍ، فَالْمَلِكُ «ذُو الْأَذْعَارِ» يُعِدُّ جَيْشًا لاحْتِلَالِ مَمْلَكَتِنَا!
- يَجِبُ أَنْ يُوَلِّيَ مَلِكُنَا «الْهَدْهَادُ» أَحَدَنَا حُكْمَ الْبِلَادِ وَتَجْهِيزَ الْجَيْشِ.

سَمِعَ الْجَمِيعُ صَوْتَ الْحَاجِبِ وَهُوَ يُعْلِنُ عَنْ قُدُومِ الْمَلِكِ إِلَى الْبَهْوِ. فَوَقَفَ الْجَمِيعُ احْتِرَامًا لَهُ.. دَخَلَ الْمَلِكُ مَرِيضًا هَزِيلًا مَحْمُولًا عَلَى كُرْسِيِّ الْعَرْشِ، وَدَخَلَتْ بَعْدَهُ الْأَمِيرَةُ الْجَمِيلَةُ «بَلْقِيسُ» الَّتِي جَلَسَتْ عَنْ يَمِينِ الْمَلِكِ. فَأَخَذَ الْجَمِيعُ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِمَا..



قَالَ الْمَلِكُ فِي صَوْتٍ وَاهِنٍ:

- تَعْلَمُـــونَ أَنَّنِي لَمْ أُنْجِبْ وَلَدًا يَتَوَلَّى الْحُكْمَ مِـــنْ بَعْدِي، وَلَيْسَ لِي مِنَ الْأَبْنَاءِ غَيْرُ ابْنَتِي «بَلْقِيسَ». فَمَنْ تَرَوْنَهُ يَصْلُحُ لِتَوَلِّي الْحُكْمَ مِنْ بَعْدِي؟

فَتَصَايَحَ الرِّجَالُ جَمِيعًا كُلٌّ يُرَشِّحُ نَفْسَهُ. فَقَالَ الْمَلِكُ:

- كُلُّكُمْ لَا تَصْلُحُونَ، كُلٌّ مِنْكُمْ يُرِيدُ أَنْ يُحَقِّقَ أَحْلَامَهُ الشَّـــخْصِيَّةَ؛ لِذَلِكَ قَرَّرْتُ أَنْ تَتَوَلَّى الْحُكْمَ مِنْ بَعْدِي ابْنَتِي «بَلْقِيسُ».

اعْتَرَضَ الْجَمِيعُ وَانْصَرَفُوا غَاضِبِينَ، رَافِضِينَ أَنْ تَحْكُمَهُمُ امْرَأَةٌ.

وَعَلَى مَسِيرَةِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ كَانَ جَيْشُ الْأَعْدَاءِ يَتَّجِهُ نَحْوَ «سَبَأَ» لِيَحْتَلَّهَا.

خَرَجَتْ «بَلْقِيسُ» فِي الْيَوْمِ التَّالِي لِتُقْنِعَ رِجَالَ الْقَبِيلَةِ بِضَرُورَةِ الاتِّحَادِ لِمُوَاجَهَةِ الْخَطَرِ الْقَادِمِ، وَلَكِنَّهُمْ رَفَضُـــوا كَلَامَهَا. حَزِنَتْ «بَلْقِيسُ»، وَوَاجَهَتْ رِجَالَ الْمَمْلَكَةِ بِمَا فِي نَفْسِهَا، وَقَالَتْ لَهُمْ مُعَاتِبَةً:

- إِذَا كَانَ الْحُكْمُ أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ الدِّفَاعِ عَنِ الْبِلَادِ، فَإِنَّنِي سَـــأَتَنَازَلُ عَنِ الْعَـــرْشِ، وَلَكِنْ دَافِعُوا عَنِ الْمَمْلَكَةِ، لَا تَدَعُوهَا تَسْـــقُطُ فِي يَدِ «ذِي الْأَذْعَارِ».

وَانْطَلَقَتْ «بَلْقِيسُ» إِلَى إِحْدَى الْقَبَائِلِ الْبَعِيـــدَةِ، وَظَلَّتْ تُتَابِعُ أَخْبَارَ مَمْلَكَتِهَا حَزِينَةً؛ فَقَـــدْ عَرَفَتْ أَنَّ «ذَا الْأَذْعَارِ» احْتَـــلَّ الْمَمْلَكَةَ، وَأَذَاقَ أَهْلَهَا سُوءَ الْعَذَابِ.. فَلَجَأَتْ «بَلْقِيسُ» إِلَى سِلَاحِ الْحِيلَةِ لِتَحْرِيرِ وَطَنِهَا، فَكَتَبَتْ رِسَـــالَةً إِلَى «ذِي الْأَذْعَارِ»، وَقَالَتْ فِيهَا إِنَّهَا تَتَمَنَّى أَنْ تَتَزَوَّجَ «ذَا

الْأَذْعَارِ»؛ حَتَّى تَعُودَ إِلَى «سَبَأَ» مَلِكَةً وَزَوْجَةَ مَلِكٍ جَبَّارٍ عَظِيمٍ!

فَرِحَ «ذُو الْأَذْعَارِ» بِالرِّسَالَةِ، وَأَرْسَلَ إِلَيْهَا مَوْكِبًا عَظِيمًا لِيَزُفَّهَا إِلَيْهِ فِي «سَبَأَ»، وَعَادَتْ «بَلْقِيسُ» إِلَى مَمْلَكَتِهَا، وَفِي حَفْلِ الزِّفَافِ أَعْلَنَ «ذُو الْأَذْعَارِ» أَنَّ «بَلْقِيسَ» أَصْبَحَتْ مَلِكَةَ «سَبَأَ».

فِي الصَّبَاحِ اجْتَمَعَتْ «بِلْقِيسُ» بِالْوُزَرَاءِ وَأَخْبَرَتْهُمْ بِأَنَّهَا قَتَلَتْ «ذَا الْأَذْعَارِ» فِي اللَّيْلَةِ الْأُولَى ثَأْرًا لِبِلَادِهَا، وَاسْتَعَادَتْ عَرْشَهَا وَعَرْشَ أَبِيهَا!!

وَعِنْدَمَا عَلِمَ رِجَالُ الْمَمْلَكَةِ بِمَا فَعَلَتْهُ مِنْ أَجْلِ وَطَنِهَا، أَقْبَلُوا يُبَايِعُونَهَا مَلِكَةً، وَيَعْتَذِرُونَ عَمَّا مَضَى، وَيُعَاهِدُونَهَا عَلَى أَنْ يَعْمَلُوا بِكُلِّ طَاقَتِهِمْ مِنْ أَجْلِ مَدِينَتِهِمْ..



زَرْقَاءُ الْيَمَامَةِ

(الْبَصَرُ وَالْبَصِيرَةُ)

قُبَيْلَ بَعْثَةِ رَسُولِ الْخِتَامِ ـ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ـ فُوجِئَ أَهْلُ «مَكَّةَ» بِسَيِّدَةٍ عَجُوزٍ عَمْيَاءَ تَرْكَبُ جَمَلًا، وَتَقِفُ بِالْقُرْبِ مِنَ الْكَعْبَةِ وَتَقُولُ:

ـ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، سَوْفَ تَسْقُطُ الْأَصْنَامُ، وَسَيَظْهَرُ فِي دِيَارِكُمْ عَنْ قَرِيبٍ نَبِيٌّ يَدْعُو إِلَى الرَّشَادِ، وَيَنْهَى عَنِ الْفَسَادِ، اسْمُهُ مُحَمَّدٌ..

سَخِرَ الْمُسْتَمِعُونَ مِنَ السَّيِّدَةِ الْعَمْيَاءِ، وَحَسِبُوهَا فَاقِدَةَ الْعَقْلِ، فَغَمَزَتْ بَعِيرَهَا وَاتَّجَهَتْ شَمَالًا نَحْوَ بِلَادِ الشَّامِ وَهِيَ تُرَدِّدُ فِي نَفْسِهَا:

ـ حَذَّرْتُ قَوْمِي مِنَ الْأَعْدَاءِ وَأَنَا صَغِيرَةٌ فَلَمْ يُصَدِّقُونِي، وَبَشَّرْتُهُمْ بِالْبُشْرَى الْكُبْرَى وَأَنَا كَبِيرَةٌ فَلَمْ يُصَدِّقُونِي، يَبْدُو أَنَّنِي سَأَظَلُّ غَيْرَ مُصَدَّقَةٍ بَيْنَ النَّاسِ، رَغْمَ صِدْقِ مَا أَرَاهُ بِبَصِيرَتِي وَقَلْبِي..

كَانَ أَهْلُ الْيَمَامَةِ فِي فَرَحٍ وَسُرُورٍ؛ فَقَدِ انْتَصَرُوا عَلَى أَعْدَائِهِمُ انْتِصَارًا سَاحِقًا، وَجَلَسَ الرِّجَالُ يَتَضَاحَكُونَ وَهُمْ يَحْكُونَ تَفَاصِيلَ الْمَعْرَكَةِ، وَصَعِدَ بَعْضُ الْأَطْفَالِ وَالصِّبْيَةِ فَوْقَ تَلٍّ مُرْتَفِعٍ يَلْعَبُونَ فِي رِمَالِهِ النَّاعِمَةِ.

فَصَاحَتْ مِنْ بَيْنِ الْأَطْفَالِ طِفْلَةٌ جَمِيلَةُ الْوَجْهِ، حَادَّةُ الْعَيْنَيْنِ:

ـ انْظُرُوا.. أَلَا تَرَوْنَ الْأَشْجَارَ الْكَبِيرَةَ الَّتِي تَتَحَرَّكُ نَحْوَنَا؟

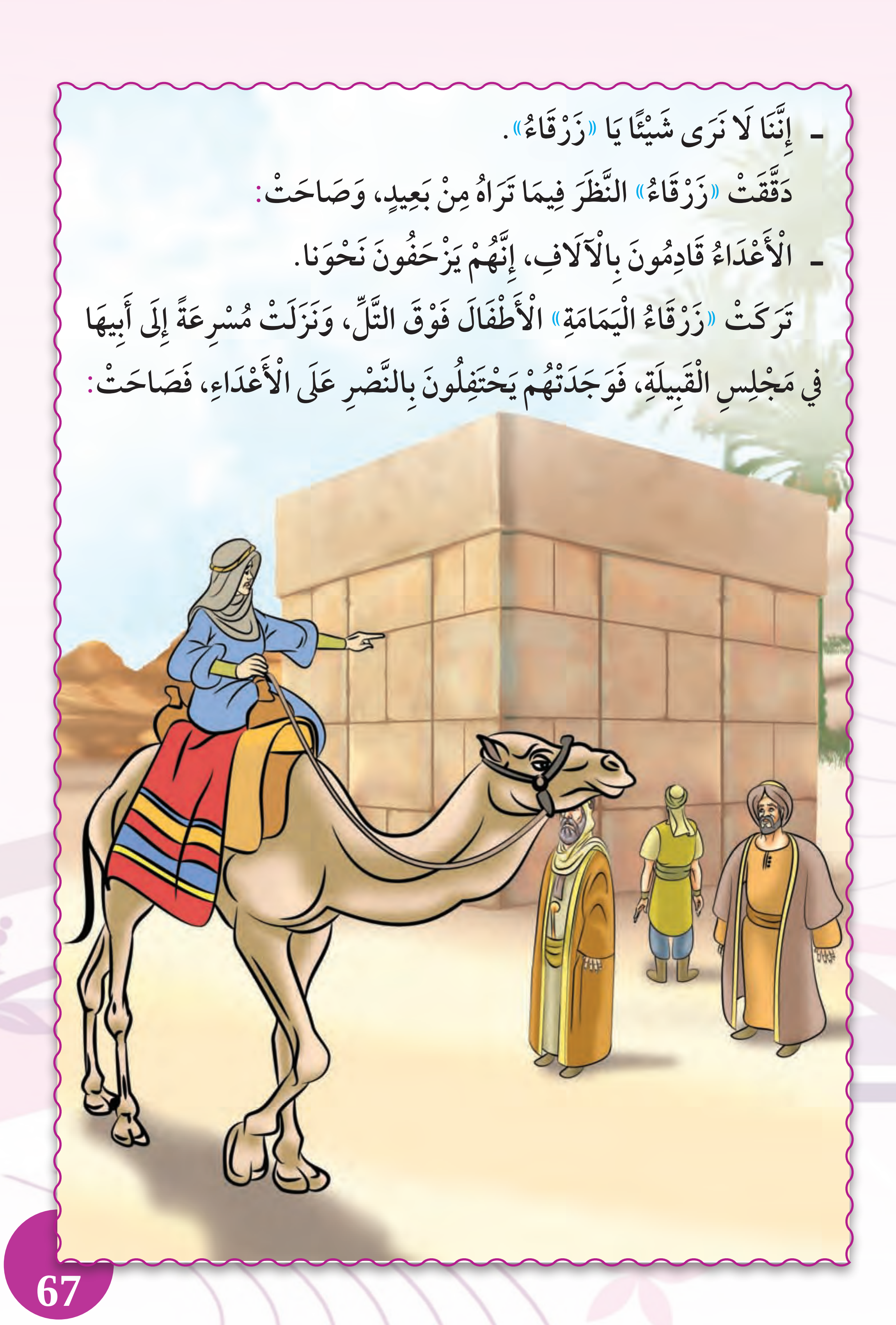
نَظَرَ الْأَطْفَالُ إِلَى الاتِّجَاهِ الَّذِي أَشَارَتْ إِلَيْهِ الطِّفْلَةُ، وَقَالُوا:

- إِنَّنَا لَا نَرَى شَيْئًا يَا «زَرْقَاءُ».

دَقَّقَتْ «زَرْقَاءُ» النَّظَرَ فِيمَا تَرَاهُ مِنْ بَعِيدٍ، وَصَاحَتْ:

- الْأَعْدَاءُ قَادِمُونَ بِالْآلَافِ، إِنَّهُمْ يَزْحَفُونَ نَحْوَنَا.

تَرَكَتْ «زَرْقَاءُ الْيَمَامَةِ» الْأَطْفَالَ فَوْقَ التَّلِّ، وَنَزَلَتْ مُسْرِعَةً إِلَى أَبِيهَا فِي مَجْلِسِ الْقَبِيلَةِ، فَوَجَدَتْهُمْ يَحْتَفِلُونَ بِالنَّصْرِ عَلَى الْأَعْدَاءِ، فَصَاحَتْ:



ـ يَا أَبِي، الْأَعْدَاءُ قَادِمُونَ.. بِالْآلَافِ يَزْحَفُونَ.. وَبِالْأَشْجَارِ يَتَخَفَّوْنَ.

فَهَبَّ أَبُوهَا وَاقِفًا وَمَعَهُ بَعْضُ الرِّجَالِ، وَتَسَاءَلُوا:

ـ أَيْنَ هُمْ يَا «زَرْقَاءُ»؟

فَأَشَارَتْ إِلَى الْجِهَةِ الْجَنُوبِيَّةِ، وَقَالَتْ:

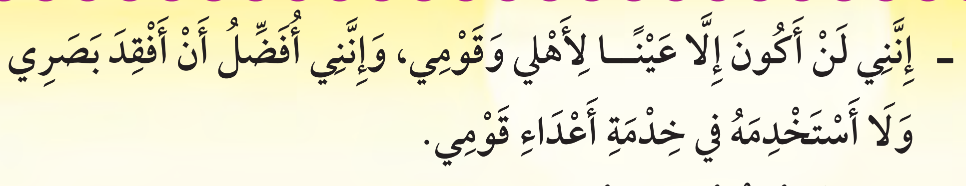
ـ هَا هُمْ.. انْظُرُوا، أَلَا تَرَوْنَهُمْ؟!

هَزَّ بَعْضُ الرِّجَالِ رُؤُوسَهُمْ فِي عَطْفٍ عَلَى الْفَتَاةِ الَّتِي فَقَدَتْ عَقْلَهَا، وَأَخَذَ الْأَبُ ابْنَتَهُ فِي يَدِهِ، وَهَمَسَ فِي أُذُنِ أُمِّهَا بِأَنَّ ابْنَتَهُمَا أَصَابَهَا الْجُنُونُ، وَأَنَّهَا تَرَى أَشْيَاءَ خَيَالِيَّةً، وَمِنَ الْأَفْضَلِ أَنْ تُحْبَسَ فِي غُرْفَةٍ؛ حَتَّى لَا تُثِيرَ سُخْرِيَةَ النَّاسِ أَوْ شَفَقَتَهُمْ. بَيْنَمَا ظَلَّتْ «زَرْقَاءُ» تَبْكِي وَتُقْسِمُ أَنَّ الْأَعْدَاءَ قَادِمُونَ وَبِالْأَشْجَارِ يَتَخَفَّوْنَ.

وَبَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ.. فُوجِئَ الْجَمِيعُ بِالْأَعْدَاءِ يُهَاجِمُونَ «الْيَمَامَةَ» مِنْ كُلِّ اتِّجَاهٍ، فَصَاحَ أَهْلُ «الْيَمَامَةِ» وَهُمْ يَهْرُبُونَ فَوْقَ الْجِبَالِ:

ـ لَيْتَنَا سَمِعْنَا كَلَامَ «زَرْقَاءَ»، إِنَّهَا تُبْصِرُ مَا لَا يُبْصِرُهُ الْآخَرُونَ.

وَأَسَرَ الْأَعْدَاءُ «زَرْقَاءَ» مَعَ مَنْ أَسَرُوهُ مِنَ النِّسَاءِ وَالْأَطْفَالِ. وَعِنْدَمَا عَلِمَ قَائِدُ الْأَعْدَاءِ بِقِصَّةِ «زَرْقَاءَ» وَتَحْذِيرِهَا لِقَوْمِهَا، أَمَرَ جُنُودَهُ أَنْ يُحْضِرُوهَا لَهُ، فَلَمَّا وَقَفَتْ أَمَامَهُ، طَلَبَ مِنْهَا أَنْ تَكُونَ عَيْنًا لَهُ وَلِجَيْشِهِ، مُقَابِلَ أَنْ تَعِيشَ عِيشَةً كَرِيمَةً فِي قَصْرٍ مِنَ الْقُصُورِ، وَلَكِنَّهَا رَفَضَتْ وَقَالَتْ فِي عِزَّةٍ:



- إِنَّنِي لَنْ أَكُونَ إِلَّا عَيْنًــا لِأَهْلِي وَقَوْمِي، وَإِنَّنِي أُفَضِّلُ أَنْ أَفْقِدَ بَصَرِي وَلَا أَسْتَخْدِمَهُ فِي خِدْمَةِ أَعْدَاءِ قَوْمِي.

صَرَخَ قَائِدُ الْعَدُوِّ فِي جُنُودِهِ:

- اقْلَعُوا عَيْنَيْهَا حَتَّى لَا تَرَى بِهَا لِقَوْمِهَا وَلَا لِنَفْسِهَا.

وَبِقَسْوَةِ قَلْبٍ كَالْحَجَرِ تَقَدَّمَ أَحَدُ الْجُنُودِ وَاقْتَلَعَ عَيْنَيْهَا الْجَمِيلَتَيْنِ.. لِتَفْقِدَ نُورَ الْبَصَرِ، لَكِنَّهَا لَمْ تَفْقِدْ نُورَ الْبَصِيرَةِ.

هِنْدُ بِنْتُ النُّعْمَانِ

(بَطَلَةُ مَعْرَكَةِ ذِي قَارٍ)

عِنْدَمَا دَخَلَ «كِسْــرَى» مَلِكُ الْفُرْسِ قَاعَةَ الْعَرْشِ فِي قَصْرِهِ، انْتَفَضَ الْجَمِيعُ لِيُــؤَدُّوا التَّحِيَّةَ لَــهُ إِلَّا رَجُلًا وَاحِدًا ظَلَّ جَالِسًــا؛ لأَنَّ الْقُيُودَ وَالسَّلَاسِلَ كَانَتْ تُكَبِّلُهُ وَتَمْنَعُهُ مِنَ الْوُقُوفِ.. هَذَا الرَّجُلُ هُوَ «الْمَلِكُ النُّعْمَانُ» الَّذِي نَظَرَ إِلَيْهِ «كِسْرَى» نَظْرَةً بَارِدَةً، وَقَالَ:

- سَنَأْخُذُ ابْنَتَكَ «هِنْدًا» بِالْقُوَّةِ، وَلَنْ تَفْعَلَ شَيْئًا لِحِمَايَتِهَا؛ لأَنَّنَا سَنَجْعَلُ الْأَفْيَالَ تَدُوسُ عَلَيْكَ حَتَّى الْمَوْتِ! خُذُوهُ مِنْ أَمَامِي.

عِنْدَمَا عَلِمَتْ «هِنْدٌ» أَنَّ أَبَاهَا قَدْ قَتَلَهُ «كِسْــرَى» مَلِكُ الْفُرْسِ، وَأَنَّهُ أَرْسَلَ جُنُودَهُ لِيَأْخُذُوهَا إِلَيْهِ، هَرَبَتْ مِنْ قَصْرِ أَبِيهَا إِلَى صَحْرَاءِ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ؛ لِتَحْتَمِيَ بِالْقَبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ وَتَطْلُبَ مِنْهُمُ النَّجْدَةَ وَالْجِوَارَ.

وَعِنْدَمَا طَلَعَتْ شَــمْسُ النَّهَارِ عَلَى قَبِيلَةِ «بَنِي شَــيْبَانَ».. اسْتَيْقَظَتْ «صَفِيَّةُ بِنْــتُ ثَعْلَبَةَ» عَلَى صَوْتِ فَتَــاةٍ يَأْتِي مِنْ خَــارِجِ الْخَيْمَةِ مُتْعَبًا مُسْتَغِيثًا:

- أَجِيرُونِي يَا قَوْمُ، احْمُونِي يَا قَوْمُ!

خَرَجَتْ «صَفِيَّةُ» مِنْ خَيْمَتِهَا مُسْــرِعَةً؛ فَأَخْبَرَتْهَــا الْفَتَاةُ بِأَنَّهَا «هِنْدُ بِنْتُ النُّعْمَانِ»!

انْدَهَشَــتْ «صَفِيَّةُ» عِنْدَمَا سَمِعَتِ الاسْــمَ، وَزَادَتْ دَهْشَتُهَا عِنْدَمَا حَكَتْ لَهَا «هِنْدٌ» مَا حَدَثَ مِنْ «كِسْرَى»؛ فَهِيَ تَسْمَعُ عَنْ «هِنْدٍ» وَعَنْ أَبِيهَا «الْمَلِكِ النُّعْمَانِ» قِصَصًا كَثِيرَةً.



هَــدَّأَتْ «صَفِيَّةُ» مِنْ رَوْعِهَــا، وَذَهَبَتْ إِلَى أَعْمَامِهَا وَفُرْسَــانِ قَبِيلَتِهَا وَقَصَّــتْ عَلَيْهِمْ مَا سَــمِعَتْهُ مِنْ «هِنْدٍ»، وَطَلَبَتْ مِنْهُــمْ حِمَايَتَهَا؛ صَوْنًا لِلشَّرَفِ وَالشَّهَامَةِ الْعَرَبِيَّةِ.

اجْتَمَعَ الْفُرْسَــانُ لِبَحْثِ مَا يُمْكِنُ عَمَلُهُ، فَإِذَا بِرَسُــولٍ فَارِسِيٍّ قَادِمٍ إِلَيْهِمْ بِرِسَالَةٍ مِنْ «كِسْرَى» يَأْمُرُهُمْ فِيهَا بِتَسْلِيمِ «هِنْدٍ»، وَيُحَذِّرُهُمْ مِنْ عَوَاقِبِ حِمَايَتِهَا.

حَوَّلَتْ رِسَالَةُ «كِسْرَى» الاجْتِمَاعَ إِلَى مُنَاقَشَةٍ سَاخِنَةٍ بَيْنَ أَبْنَاءِ «بَنِي شَيْبَانَ»، فَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ:

- نُسَلِّمُ «هِنْدًا» إِلَى «كِسْرَى»؛ لأَنَّ قُوَّاتِهِ كَثِيرَةٌ وَلَنْ نَسْتَطِيعَ مُوَاجَهَتَهَا.

وَهُنَاكَ مَنْ رَفَضَ ذَلِكَ، وَقَالَ:

- إِنَّ الْعَرَبَ قُوَّتُهُمْ أَكْبَرُ مِنْ «كِسْرَى» لَوِ اتَّحَدُوا.

فَرَدَّ عَلَيْهِ أَحَدُهُمْ:

- كَيْفَ نَتَّحِدُ وَقَبِيلَةُ «إِيَاد» الْعَرَبِيَّةُ تَقِفُ مَعَ «كِسْرَى» فِي كُلِّ حُرُوبِه؟!

فَقَالَ شَيْخُ الْقَبِيلَةِ:

- إِنَّنَا لَوْ تَرَكْنَا «هِنْدًا» لِـ«كِسْــرَى» الْفُرْسِ الْيَــوْمَ، فَمَنْ أَدْرَانَا أَنَّهُ لَنْ يَطْلُبَ ابْنَتِي وَبَنَاتِكُمْ غَدًا؟! إِنَّ حِمَايَةَ «هِنْدٍ» الْيَوْمَ هِيَ حِمَايَةٌ لِبَنَاتِنَا غَدًا. أَمَّا أَمْرُ قَبِيلَةِ «إِيَاد» فَاتْرُكُوهُ لِي.

بَعْدَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ عَادَ شَيْخُ الْقَبِيلَةِ مِنْ عِنْدِ قَبِيلَةِ «إِيَاد» وَهُوَ يَحْمِلُ خَبَرًا لأَبْنَاءِ قَبِيلَتِهِ، وَهُوَ أَنَّ قَبِيلَةَ «إِيَاد» سَتَدْخُلُ الْمَعْرَكَةَ فِي الْبِدَايَةِ مَعَ الْفُرْسِ.

وَعِنْدَمَا تَشْتَدُّ الْمَعْرَكَةُ سَتَهْرُبُ «إِيَاد» نَاحِيَةَ الصَّحْرَاءِ الْقَاحِلَةِ، فَإِذَا مَا سَـارَ وَرَاءَهَا الْفُرْسُ فِي الصَّحْرَاءِ، انْقَلَبَتْ «إِيَاد» عَلَيْهِمْ، فَيَقَعُ الْفُرْسُ بَيْنَ جَيْشَيْنِ عَرَبِيَّيْنِ: «إِيَاد» مِنَ الْيَمِينِ، وَ«بَنِي شَيْبَانَ» مِنَ الْيَسَارِ!

وعِنْدَ وَادِي «ذِي قَارٍ» بَدَأَتِ الْمَعْرَكَـةُ، وَنَفَّذَتْ «إِيَاد» الْخُطَّةَ الَّتِي قَضَتْ عَلَى جَيْشِ «كِسْـرَى» وَشَـرَّدَتْهُ فِي الصَّحْرَاءِ الْعَرَبِيَّةِ الْوَاسِعَةِ، وَكَسَرَتْ قُوَّتَهُ الَّتِي لا تُقْهَرُ.

فِي الْمَسَـاءِ ذَهَبَتْ «هِنْدٌ» إِلَى فُرْسَـانِ الْقَبِيلَةِ لِتَشْكُرَهُمْ، فَقَالَ شَيْخُ الْقَبِيلَةِ:

- بَلِ الشُّكْرُ لَكِ يَا ابْنَتِي، لَقَدْ وَحَّدْتِ الْقَبَائِلَ الْعَرَبِيَّةَ لأَوَّلِ مَرَّةٍ، وَهَزَمْنَا دَوْلَةَ الْفُرْسِ وَجَيْشَهَا الْكَبِيرَ.



الْخَنْسَاءُ

(أَشْعَرُ الشَّاعِرَاتِ)

أَرَادَتْ بَائِعَةُ الْعُطُورِ وَالْبَخُورِ أَنْ تُرِيحَ نَفْسَهَا مِنْ عَنَاءِ التَّرْحَالِ وَهَجِيرِ الصَّيْفِ، فَلَجَأَتْ إِلَى بَيْتٍ تَسْتَظِلُّ بِهِ، فَسَمِعَتْ صَوْتَ امْرَأَةٍ تَبْكِي دَاخِلَ الْبَيْتِ وَهِيَ تَقُولُ:

يُذَكِّرُنِي طُلُوعُ الشَّمْسِ صَخْرًا ... وَأَذْكُرُهُ لِكُلِّ غُرُوبِ شَمْسِ

وَلَوْلَا كَثْرَةُ الْبَاكِينَ حَوْلِي ... عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي

فَطَرَقَتْ بَائِعَةُ الْعُطُورِ الْبَابَ، حَتَّى فَتَحَتْ لَهَا سَيِّدَةٌ عَجُوزٌ ذَابِلَةُ الْعَيْنَيْنِ، بَيْضَاءُ الشَّعْرِ. فَقَالَتْ لَهَا:

- هَوِّنِي عَلَيْكِ يَا أُخْتَ الْعَرَبِ، لِمَ كُلُّ هَذَا الْبُكَاءِ الَّذِي قَطَّعَ قَلْبِي؟!

قَالَتِ الْمَرْأَةُ الْعَجُوزُ لِبَائِعَةِ الْعُطُورِ:

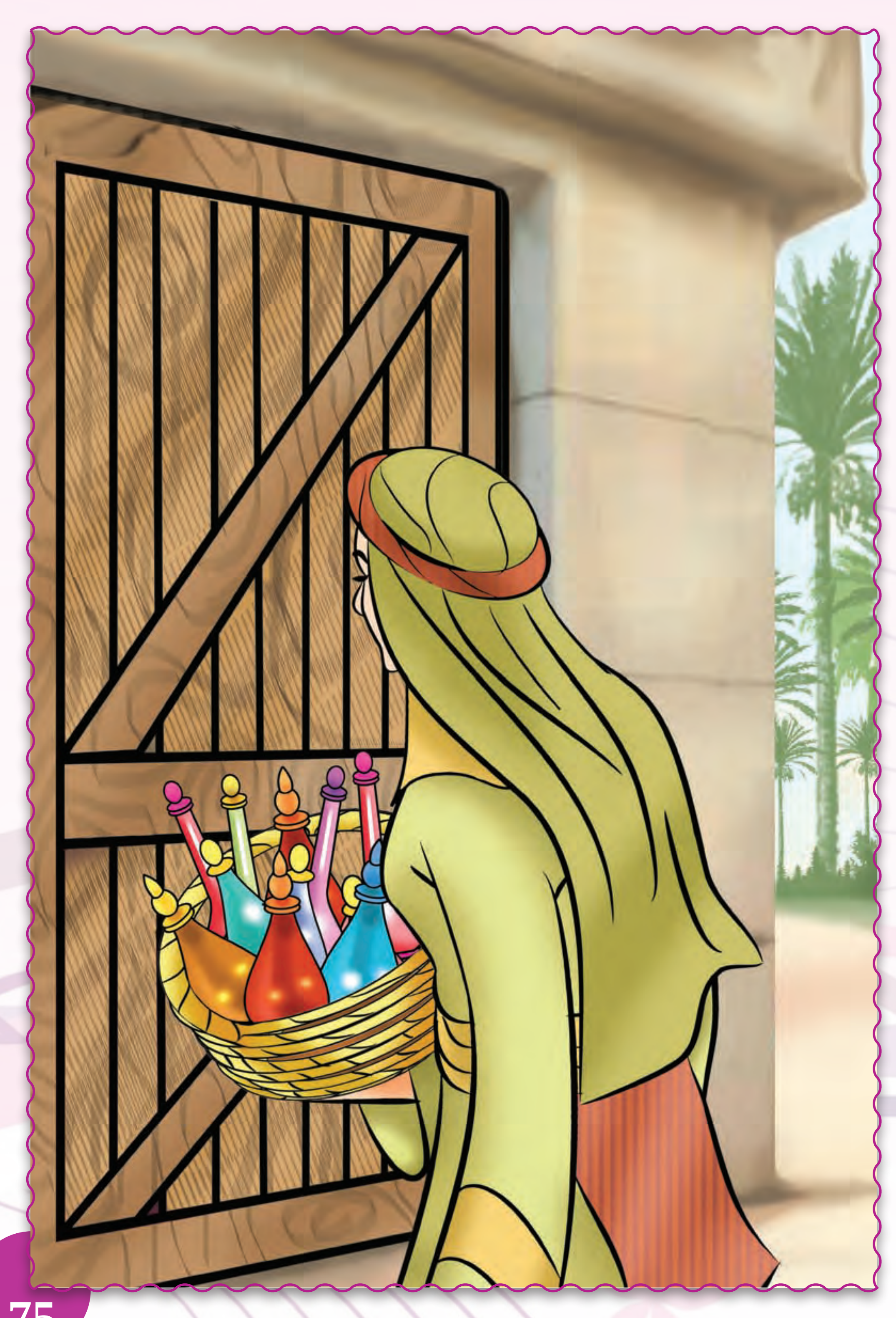
- لَقَدْ فَقَدْتُ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا عِنْدَمَا فَقَدْتُ أَخِي «صَخْرًا».

قَالَتْ بَائِعَةُ الْعُطُورِ:

- وَمَنْ أَنْتِ يَا أُخْتَ الْعَرَبِ؟ وَمَا هِيَ قِصَّةُ أَخِيكِ هَذِهِ؟

قَالَتِ الْمَرْأَةُ الْعَجُوزُ:

- أَنَا اسْمِي «تُمَاضِرُ»، وَأَطْلَقَ قَوْمِي عَلَيَّ اسْمَ «الْخَنْسَاءِ»، وَهُوَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ الْغَزَالِ.. رُبَّمَا لِطُولِ أَنْفِي.



أَمَّا شِعْرِي فَقَدْ كَتَبْتُ مُعْظَمَهُ فِي فَقْدِ أَخِي «صَخْرٍ»؛ وَذَلِكَ لأَنَّهُ كَانَ عَطُوفًا بِي، وَلَنْ أَنْسَى أَبَدًا رَحْمَتَهُ بِي، وَأَنَّهُ أَعْطَانِي نِصْفَ مَالِهِ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ؛ لأَنَّ زَوْجِي كَانَ مِتْلَافًا لِلْمَالِ مُقَامِرًا بِهِ. وَحِينَمَا مَاتَ زَوْجِي بَعْدَ أَنْ ظَلَّ مَرِيضًا لِمُدَّةِ عَامٍ كَامِلٍ لَمْ أَجِدْ أَحَدًا يَعْطِفُ عَلَيَّ وَيُقِيمُ أَسَاسَ بَيْتِيَ الْمُنْهَارِ غَيْرَ أَخِي «صَخْر»؛ فَلَمْ يَكُنْ «صَخْرٌ» أَخًا فَقَط، بَلْ كَانَ أَبًا وَزَوْجًا وَابْنًا وَأَخًا وَكُلَّ شَيْءٍ لِي فِي هَذِهِ الحَيَاةِ.

قَالَتِ الْمَرْأَةُ:

- هَوِّنِي عَلَيْكِ يَا أُخْتَ الْعَرَبِ، وَتَعَالَيْ مَعِي نَذْهَبْ لِلسَّيِّدَةِ «عَائِشَةَ» رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فَمَعِي بَعْضُ الْعُطُورِ وَالزِّينَاتِ أُرِيدُ أَنْ أُرِيَهَا لَهَا.

تَوَكَّأَتِ «الْخَنْسَاءُ» عَلَى عَصَاهَا وَسَارَتْ حَتَّى وَصَلَتْ إِلَى بَيْتِ السَّيِّدَةِ «عَائِشَةَ»، الَّتِي فُوجِئَتِ بِـ«الْخَنْسَاءِ» تَلْبَسُ ثَوْبًا مِنَ الشَّعْرِ وَثِيَابًا لِلْحِدَادِ وَالْحُزْنِ، فَنَبَّهَتْهَا السَّيِّدَةُ «عَائِشَةُ» إِلَى أَنَّ الرَّسُولَ ﷺ قَدْ نَهَى عَنْ لُبْسِ ثَوْبِ الْحِدَادِ عَلَى الْمَيِّتِ.

أَذْعَنَتِ الْخَنْسَاءُ لأَمْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَعَزَمَتْ عَلَى أَلَّا تَعُودَ لِذَلِكَ مَرَّةً أُخْرَى، وَظَلَّتْ تُدَاوِمُ عَلَى قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ وَتُنْشِدُ الشِّعْرَ الإِسْلَامِيَّ الَّذِي يَحُثُّ عَلَى الْفَضِيلَةِ.

بَعْدَ سَنَوَاتٍ كَانَ أَوْلَادُهَا الأَرْبَعَةُ يَتَقَدَّمُونَ الْفُرْسَانَ لِخَوْضِ مَعْرَكَةِ الْقَادِسِيَّةِ فِي بِلَادِ الْفُرْسِ. فَاسْتَعَادَتِ «الْخَنْسَاءُ» بَلَاغَتَهَا الْمَعْهُودَةَ،

وَخَطَبَتْ فِيهِمْ تُحَرِّضُهُمْ عَلَى الْقِتَالِ وَالْجِهَادِ حَتَّى الْمَوْتِ؛ دِفَاعًا عَنِ الرِّسَالَةِ وَالدِّينِ وَالْعَقِيدَةِ .

وَعِنْدَمَا وَصَلَ النَّذِيرُ بِمَوْتِ أَبْنَائِهَا الْأَرْبَعَةِ فِي الْمَعْرَكَةِ، قَالَتْ:

- الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي شَرَّفَنِي بِاسْتِشْهَادِهِمْ.

وَهَكَذَا ظَهَرَ جَلِيًّا أَثَرُ الدِّينِ فِي تَغْيِيرِ سُـلُوكِهَا وَشِـعْرِهَا، وَأَنَّهَا إِذَا كَانَتْ قَدْ فَقَدَتِ الدُّنْيَا بِمَوْتِ «صَخْرٍ»، كَمَا كَانَتْ تَقُولُ، فَقَدْ كَسَبَتِ الْآخِرَةَ بِاسْتِشْهَادِ أَبْنَائِهَا الْأَرْبَعَةِ.



شَجَرَةُ الدُّرِّ

(قَاهِرَةُ الصَّلِيبِيِّينَ)

شَقَّ صَوْتُ الْمُؤَذِّنِ صَمْتَ الْقَصْرِ الْمَلَكِيِّ عَلَى نِيلِ «الْمَنْصُورَةِ»، فَنَهَضَتِ الْجَارِيَةُ «وَرْدُ شَاه» وَاتَّجَهَتْ إِلَى حُجْرَةِ سَيِّدَتِهَا «شَجَرَةِ الدُّرِّ»؛ لِتُوقِظَهَا لِلصَّلَاةِ، فَوَجَدَتْهَا سَاهِرَةً، فَسَأَلَتْهَا عَنِ السَّبَبِ. فَقَالَتْ «شَجَرَةُ الدُّرِّ»:

- الْمَرَضُ يَزْدَادُ عَلَى «الْمَلِكِ الصَّالِحِ» يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، وَقَدْ جَاءَتِ الْأَخْبَارُ أَنَّ الصَّلِيبِيِّينَ لَمْ يَكْتَفُوا بِاحْتِلَالِ السَّاحِلِ الشَّمَالِيِّ لِدِلْتَا مِصْرَ، بَلْ بَدَأُوا يَسْتَعِدُّونَ لِغَزْوِ الدِّلْتَا وَالْوُصُولِ لِلْقَاهِرَةِ. وَكَانَ مِنَ الْمُفْتَرَضِ أَنْ يَصِلَ ابْنُ الْمَلِكِ الْأَمِيرُ «تُورَان شَاه» مِنْ بِلَادِ الشَّامِ مُنْذُ خَمْسَةِ أَيَّامٍ؛ فَالْبِلَادُ فِي حَاجَةٍ إِلَى مَنْ يَقُومُ بِإِدَارَةِ شُؤُونِهَا.

نَهَضَتْ «شَجَرَةُ الدُّرِّ» مِنْ مَجْلِسِهَا، وَدَخَلَتْ إِلَى حُجْرَةِ «الْمَلِكِ الصَّالِحِ»؛ لِتَطْمَئِنَّ عَلَى صِحَّتِهِ الَّتِي تَزْدَادُ سُوءًا يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ. ولَكِنَّها خَرَجَتْ تَبْكِي فِي حُرْقَةٍ، وَهِيَ تَقُولُ فِي صَوْتٍ خَافِتٍ:

- لَقَدْ مَاتَ «الْمَلِكُ الصَّالِحُ»، وَالصَّلِيبِيُّونَ عَلَى مَشَارِفِ الْبِلَادِ، وَ«تُورَان شَاه» لَمْ يَصِلْ بَعْدُ لِيَتَوَلَّى الْحُكْمَ.. مَاذَا أَفْعَلُ؟ مَاذَا أَفْعَلُ؟

فَأَخَذَتْهَا الْجَارِيَةُ بَيْنَ أَحْضَانِهَا، وَهَدَّأَتْ مِنْ رَوْعِهَا قَائِلَةً:

- عَهِدْتُ فِيكِ الْحِكْمَةَ وَحُسْنَ تَدْبِيرِ الْأُمُورِ يَا مَوْلَاتِي.

بَعْدَ لَحظَاتٍ نَهَضَتْ «شَجَرَةُ الدُّرِّ»، وَقَالَتْ في صَوْتٍ حَاسِمٍ:

ـ لَا بُدَّ أَنْ نَدْفِنَ «الْمَلِكَ الصَّالِحَ» سِـــرًّا؛ حَتَّـــى لَا يَعْلَمَ بِمَوْتِهِ أَحَدٌ، فَلَوْ عَلِمَ الصَّلِيبِيُّونَ بِمَوْتِهِ، فَسَـــيَنْتَهِزُونَ الْفُرْصَةَ وَيُهَاجِمُونَ الدِّلْتَا، وسَيَشْتَعِلُ الصِّرَاعُ بَيْنَ الْأُمَرَاءِ الطَّامِعِينَ في السُّلْطَةِ، وسَتَهْتَزُّ الرُّوحُ الْمَعْنَوِيَّةُ لِجُنُودِنَا، وَسَتَتَعَرَّضُ البِلادُ لِخَطَرٍ عَظِيمٍ .

قَالَتْ «وَرْدُ شَاه» وَالدُّمُوعُ لَا تَزَالُ تُبَلِّلُ عَيْنَيْهَا :

ـ وَلَكِنْ كَيْفَ نَدْفِنُهُ سِرًّا؟! وَمَنْ سَيُدِيرُ الْمَعْرَكَةَ وَيَقُودُ الْبِلَادَ؟!

قَالَتْ «شَجَرَةُ الدُّرِّ» في صَوْتِ الْوَاثِقِ الَّذِي اتَّخَذَ الْقَرَارَ:



- سَـنَضَعُ الْمَلِكَ فِي صُنْدُوقٍ مَلَكِيٍّ، وَنَحْمِلُهُ عَلَى سَفِينَةٍ تَسِيرُ بِهِ فِي النِّيلِ مِنَ «الْمَنْصُورَةِ» إِلَى «الْقَاهِرَةِ» بِاعْتِبَارِهِ صُنْدُوقًا بِهِ أَشْيَاءُ وَمَلَابِسُ لِلْمَلِكَةِ «شَجَرَةِ الدُّرِّ»، وَلَنْ يَقْوَى أَحَدٌ عَلَى فَتْحِ الصُّنْدُوقِ. أَمَّا عَنْ إِدَارَةِ الْمَعْرَكَةِ، فَسَأَظَلُّ أَتَسَلَّمُ مَطَالِبَ الْجَيْشِ، وَأَدْخُلُ بِهَا إِلَى حُجْرَةِ الْمَلِكِ وَحْدِي وَأَخْتِمُهَا بِخَاتَمِهِ، وَبِذَلِكَ لَنْ يَشُكَّ أَحَدٌ فِي مَوْتِ الْمَلِكِ.

وَبِالْفِعْلِ كَانَتِ الْخُطَطُ الْعَسْكَرِيَّةُ وَمَطَالِبُ الْجَيْشِ وَقَادَتِهِ تَدْخُلُ إِلَى حُجْرَةِ «الْمَلِكِ الصَّالِحِ» وَتَخْرُجُ مَخْتُومَةً بِخَاتَمِهِ، وَبِهَا عِبَارَاتُ التَّشْجِيعِ وَالثَّنَاءِ لِقَادَةِ الْجَيْشِ وَالْجُنُودِ.

وَظَلَّتْ «شَجَرَةُ الدُّرِّ» تَعِدُ الْقَادَةَ بِوُعُودٍ كَثِيرَةٍ إِذَا حَقَّقُوا النَّصْرَ عَلَى الصَّلِيبِيِّينَ، وَاسْتَمَرَّ الْأَمْرُ هَكَذَا حَتَّى أَزَالَ اللهُ الْهُمُومَ مِنْ قَلْبِ «شَجَرَةِ الدُّرِّ» ذَاتَ صَبَاحٍ؛ فَقَدْ وَصَلَ الْأَمِيرُ «تُورَان شَاه» مِنْ بِلَادِ الشَّامِ.. فَأَعْلَنَتْ «شَجَرَةُ الدُّرِّ» خَبَرَ مَوْتِ «الْمَلِكِ الصَّالِحِ».

وَتَوَلَّى ابْنُهُ «تُورَان شَاه» الْحُكْمَ مِنْ بَعْدِهِ. وَمَعَ السَّاعَاتِ الْأُولَى لِتَوَلِّيهِ الْحُكْمَ، وَقَفَ قَائِدُ الْجَيْشِ لِيُعْلِنَ أَمَامَ «شَجَرَةِ الدُّرِّ» وَ«تُورَان شَاه» أَخْبَارًا سَارَّةً عَنِ الْمَعْرَكَةِ مَعَ الصَّلِيبِيِّينَ؛ فَقَدْ أَسَرَ الْمِصْرِيُّونَ الْمَلِكَ «لُوِيسَ التَّاسِعَ» مَلِكَ فَرَنْسَا فِي بَيْتِ «ابْنِ لُقْمَانَ» بِالْمَنْصُورَةِ بَعْدَ أَنْ هَزَمُوا جَيْشَهُ الْكَبِيرَ هَزِيمَةً سَاحِقَةً.



زِنُوبِيَا

(حُلْمُ الْوَحْدَةِ وَكَرَامَةُ الْمَوْتِ)

صَباحٌ مُشْرِقٌ جَمِيلٌ يَلُفُّ مَدِينَةَ «تَدْمُرَ»، وَالشَّوَارِعُ ازْدَانَتْ مُنْذُ أَمْسِ الْأَوَّلِ، وَحَمَلَ الْأَطْفَالُ الزُّهُورَ وَسَعَفَ النَّخِيلِ، وَحَمَلَ الرِّجَالُ أَعْلَامًا مَكْتُوبًا عَلَيْهَا عِبَارَاتٌ تُحَيِّي الْمَلِكَةَ الْعَظِيمَةَ «زِنُوبِيَا» زَوْجَةَ الْمَلِكِ الرَّاحِلِ «سَيِّدِ الشَّرْقِ»، وَالَّتِي سَيَمُرُّ مَوْكِبُهَا مِنَ الشَّارِعِ بَعْدَ قَلِيلٍ؛ احْتِفَالًا بِتَوْحِيدِ مِصْرَ وَالشَّامِ فِي دَوْلَةٍ وَاحِدَةٍ. هَذِهِ الْوَحْدَةُ الَّتِي ضَايَقَتِ الرُّومَ وَجَعَلَتْ مَلِكَهَا «أُورِلْيَان» يَبْعَثُ التَّحْذِيرَاتِ الْكَثِيرَةَ مِنْ أَنْ تَتِمَّ الْوَحْدَةُ بَيْنَ مِصْرَ وَالشَّامِ؛ لِأَنَّهَا لَوْ تَمَّتْ سَتُضْعِفُ نُفُوذَهُ فِي بِلَادِ الشَّرْقِ كُلِّهِ.

بَعْدَ قَلِيلٍ، أَقْبَلَ الْمَوْكِبُ الْمُكَوَّنُ مِنَ الْمَلِكَةِ وَأَوْلَادِهَا الثَّلَاثَةِ وَقَادَةِ الْجَيْشِ تَتَقَدَّمُهُمُ الْمُوسِيقَى وَالْوُرُودُ.

وَصَلَتِ الْمَلِكَةُ إِلَى مِنَصَّةِ الاحْتِفَالِ الرَّئِيسِيَّةِ، وَبَدَأَتْ كَلَامَهَا شَاكِرَةً قَادَةَ الْجَيْشِ وَالشَّعْبَ عَلَى الْتِفَافِهِمْ حَوْلَ مَشْرُوعِ الْوَحْدَةِ الْكَبِيرِ، ثُمَّ قَالَتْ:

- نَعْلَمُ أَنَّ وَحْدَةَ هَذِهِ الْمِنْطَقَةِ تُضَايِقُ «أُورِلْيَان» مَلِكَ الرُّومِ، فَهُمْ ضِدُّ مَصَالِحِ بِلَادِنَا وَضِدُّ وَحْدَةِ أُمَّتِنَا؛ لِذَا فَإِنَّنِي أُعْلِنُ الْيَوْمَ أَمَامَكُمُ انْتِهَاءَ عَصْرِ الْمُهَادَنَةِ مَعَ الرُّومِ.

صَفَّقَ قَـادَةُ الْجَيْشِ بِحَرَارَةٍ، وَهَتَفَتِ الْجَمَاهِيرُ الْمُحْتَشِـدَةُ في بَهْوِ الاحْتِفَالِ بِاسْمِ الْمَلِكَةِ وَالْوَحْدَةِ.. وَدَخَلَتِ الْمَلِكَةُ إِلَى قَصْرِهَا مُشْبَعَةً بِحُبِّ شَعْبِهَا وَتَأْيِيدِ قَادَتِهَا لَهَا.

بَعْدَ أُسْبُوعٍ جَاءَتْ إِلَى الْمَلِكَةِ «زِنُوبِيَا» رِسَالَةٌ مِنَ الْمَلِكِ «أُورِلْيَان» تَقُولُ:



«مِـنْ «أُورِلْيَان» الْعَظِيم مَلِـكِ الرُّوم إِلَى الْمَلِكَـةِ التَّابِعَةِ لَنَا فِي بِلَادِ الشَّرْقِ «زِنُوبِيَا»، اعْلَمِي أَنَّ مَا قُمْتِ بِهِ مِنْ ضَمِّ مِصْرَ وَبَعْضِ الْمَمَالِكِ الشَّـرْقِيَّةِ هُوَ ضِدُّ رَغْبَتِنَا، وَإِذَا لَمْ تَنْتَهِ هَذِهِ الْوَحْدَةُ فَاعْلَمِي أَنَّ جُيُوشَ الرُّوم قَادِرَةٌ عَلَى نَزْعِكِ مِنْ عَلَى عَرْشِ الْبِلَادِ».

هُنَا وَقَفَتْ «زِنُوبِيَا» ثَائِرَةً، وَقَالَتْ فِي شِدَّةٍ لِلرَّسُولِ:

- خَسِئْتَ وَخَسِـئَ مَنْ أَرْسَـلَكَ إِلَيَّ! أَبْلِغْ قَائِدَكَ «أُورِلْيَان» بِأَنَّنِي لَنْ أَتَخَـلَّى عَنْ قِطْعَةٍ مِنْ أَرْضِ مَمْلَكَتِـي إِلَّا إِذَا تَخَلَّى هُوَ عَنْ جُزْءٍ مِنْ مَمْلَكَتِهِ. وَمِثْلَمَا عِشْتُ مَلِكَةً عَلَى هَذِهِ الْبِلَادِ فَإِنَّنِي سَأَمُوتُ مَلِكَةً..

عِنْدَمَا أَبْلَغَ الرَّسُولُ «أُورِلْيَان» بِرَدِّ «زِنُوبِيَا» هَاجَ وَمَاجَ، وَاجْتَمَعَ مَعَ قَادَةِ جَيْشِـهِ، وَقَرَّرَ إِرْسَالَ جَيْشَيْنِ قَوِيَّيْنِ: أَحَدُهُمَا إِلَى مِصْرَ لاحْتِلَالِهَا وَفَصْلِهَا عَنِ الشَّـامِ، وَالْآخَرُ سَـيَقُودُهُ بِنَفْسِـهِ إِلَى «تَدْمُرَ» لاحْتِلَالِهَا وَإِسْقَاطِ حُكْمِ «زِنُوبِيَا».

وَانْطَلَقَتْ جُيُوشُ الرُّومِ نَحْوَ مِصْرَ واحْتَلَّتْهَا، ثُمَّ أَخَذَتْ فِي مُحَاصَرَةِ «تَدْمُرَ» حِصَارًا شَـدِيدًا، وَطَالَتْ فَتْرَةُ الْحِصَارِ حَتَّى صَارَ النَّاسُ يَئِنُّونَ مِنَ الْجُوعِ فِي شَـوَارِعِ «تَدْمُرَ»، أَمَّا الْمَلِكَةُ فَلَمْ تَجِدْ خَيْرًا مِنَ الانْتِحَارِ لِلْخَلَاصِ مِنْ هَذِهِ الْوَرْطَةِ، وَلِتُخَلِّصَ الشَّعْبَ مِنْ هَذَا الْحِصَارِ الْقَاتِلِ، وَقَالَتْ وَهِيَ تَلْفِظُ أَنْفَاسَهَا الْأَخِيرَةَ:

- الْمَوْتُ بِكَرَامَةٍ أَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ أَنْ أَعِيشَ ذَلِيلَةً خَارِجَ وَطَنِي.

نَمَاذِجُ حَدِيثَةٌ

مَلَك حِفْنِي نَاصِف

(بَاحِثَةُ الْبَادِيَةِ)

دَخَلَ الشَّاعِرُ «حِفْنِي نَاصِف» بَيْتَهُ، فَلَمْ يَجِدْ أَحَدًا مِنَ الْخَدَمِ أَوْ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ، وَلَكِنَّهُ سَمِعَ صَوْتَ ابْنَتِهِ عَالِيًا غَاضِبًا، يَأْتِي مِنْ حُجْرَةِ مَكْتَبَتِهِ فِي الدَّوْرِ الثَّانِي، هَـرَعَ الرَّجُلُ إِلَى الْمَكْتَبَةِ، فَوَجَـدَ ابْنَتَهُ «مَلَك» ذَاتَ السَّنَوَاتِ الْعَشْـرِ تَقِفُ فَوْقَ الْمَكْتَبِ، وَتُمْسِكُ فِي يَدِهَا خُطْبَةَ الْجُمُعَةِ الَّتِي كَتَبَهَا وَالِدُهَا لأَئِمَّةِ الْمَسَاجِدِ، وَتَخْطُبُ فِي كُلِّ مَنْ فِي الْبَيْتِ.

شُـعُورَانِ مُتَنَاقِضَانِ مَلآَ قَلْبَ الشَّاعِرِ، شُعُورٌ بِالْفَرْحَةِ الْغَامِرَةِ؛ لأَنَّ ابْنَتَهُ «مَلَك» تُجِيدُ الْخَطَابَةَ وَإِلْقَاءَ الشِّعْرِ الَّذِي جَاءَ فِي الْخُطْبَةِ، وَشُعُورٌ بِالْخَوْفِ مِنْ أَنْ يَكُونَ الْجِيرَانُ قَدْ سَـمِعُوا مَـا قَالَتْهُ «مَلَك»؛ فَوَالِدُهَا يَكْتُبُ الْخُطَبَ النَّارِيَّةَ الَّتِي تُحَرِّضُ النَّاسَ ضِدَّ الإِنْجِلِيزِ.

ذَاتَ يَوْمٍ فَاجَأَتْ «مَلَـك» وَالِدَهَا بِأُولَى قَصَائِدِهَا الَّتِي كَتَبَتْهَا تَقْلِيدًا لِقَصَائِدِهِ. وَعِنْدَمَا اسْتَمَعَ الْأَبُ إِلَى قَصِيدَةِ ابْنَتِهِ الْأُولَى أَدْرَكَ أَنَّهُ أَنْجَبَ أَدِيبَةً سَـيَكُونُ لَهَا شَأْنٌ فِي الْمُسْـتَقْبَلِ، وَأَخْبَرَهَا بِأَنَّهَا سَتَكُونُ أَوَّلَ فَتَاةٍ مِصْرِيَّةٍ تَتَقَدَّمُ لِلشَّهَادَةِ الابْتِدَائِيَّةِ، فَفَرِحَتْ بِذَلِكَ فَرَحًا شَدِيدًا.

كَانَ عَامُ 1901م بِدَايَةً لِلْقَرْنِ الْعِشْرِينَ، وَبِدَايَةً أَيْضًا لِدُخُولِ «مَلَك» لِلْقِسْمِ الْعَالِي فِي الْمَدْرَسَةِ السَّنِيَّةِ، وَحُصُولِهَا عَلَى شَهَادَتِهَا الْعَالِيَةِ مُتَفَوِّقَةً



عَلَى جَمِيع أَقْرَانِهَا، فَعَيَّنَتْهَا وِزَارَةُ التَّعْلِيمِ فِي مَدَارِسِ الْبَنَاتِ الْأَمِيرِيَّةِ.

وَذَاتَ لَيْلَةٍ اسْتَدْعَى الشَّاعِرُ ابْنَتَهُ وَقَالَ لَهَا:

- إِنَّ مَقَالَاتِكِ عَنْ مُشْكِلَاتِ الْمَرْأَةِ أَثَارَتْ عَدَدًا مِنَ الرِّجَالِ، وَقَدْ حَدَّثَنِي بَعْضُهُمْ غَاضِبًا، بِأَنَّكِ تُثِيرِينَ غَضَبَ الْأَزْوَاجِ!

قَالَتْ «مَلَكُ» فِي صَوْتٍ وَاضِحٍ:

- لَقَدْ غَضِبُوا لِأَنَّنِي انْتَقَدْتُ الزَّوَاجَ مِنَ الْأَجْنَبِيَّاتِ، وَهَاجَمْتُ تَعَدُّدَ الزَّوْجَاتِ بِشَكْلٍ صَارِخٍ؛ لَقَدْ ظَنَّ الرَّجُلُ أَنَّهُ مَا دَامَ امْتَلَكَ ثَرْوَةً هَائِلَةً، فَمِنْ حَقِّهِ أَنْ يُعَدِّدَ الزَّوْجَاتِ بِلَا سَبَبٍ شَرْعِيٍّ.

رَبَّتَ الْأَبُ عَلَى كَتِفِ ابْنَتِهِ، وَقَالَ:

- إِنَّ مَا تَقُومِينَ بِهِ كَثِيرٌ؛ إِنَّكِ مُعَلِّمَةٌ، وَتَكْتُبِينَ الْمَقَالَاتِ، وَتَزُورِينَ النِّسَاءَ فِي بُيُوتِهِنَّ لِشَرْحِ أَفْكَارِكِ، أَلَا تُفَكِّرِينَ فِي مُسْتَقْبَلِكِ؟

قَالَتْ «مَلَكُ»:

- إِنَّ قَضِيَّةَ نُهُوضِ الْمَرْأَةِ هِيَ مُسْتَقْبَلِي يَا أَبِي.. إِنَّنِي سَعِيدَةٌ لِأَنَّنِي أَقُومُ بِوَاجِبِي تِجَاهَ تَوْعِيَةِ الْمَرْأَةِ؛ لِأَنَّ الْمَرْأَةَ هِيَ الْمَدْرَسَةُ الَّتِي تُنْشِئُ الْأَجْيَالَ، أَمَّا إِذَا كُنْتَ تَقْصِدُ بِالْمُسْتَقْبَلِ الزَّوَاجَ فَإِنَّنِي لَا أُمَانِعُ أَبَدًا، وَلَكِنَّنِي لَنْ أَرْتَبِطَ إِلَّا بِالرَّجُلِ الَّذِي يَحْتَرِمُ أَفْكَارِي.

هُنَا فَاتَحَهَا وَالِدُهَا قَائِلًا:

- إِنَّ «عَبْدَ السَّتَّارِ بك الْبَاسِلَ» رَئِيسَ قَبِيلَةِ الرَّمَّاحِ بِالْفَيُّومِ طَلَبَ يَدَكِ مِنِّي، إِنَّهُ يَمْلِكُ آلَافَ الْأَفْدِنَةِ وَقَصْرًا كَبِيرًا يُسَمَّى «قَصْرَ الْبَاسِلِ».

قَالَتْ «مَلَك»:

- إِنَّ مَا يَشْـغَلُنِي لَيْسَ الْقَصْرَ وَالْأَفْدِنَةَ.. الْمُهِمُّ عِنْدِي أَنْ يَسْـمَحَ لِي بِنَشْرِ أَفْكَارِي بَيْنَ الْفَلَّاحَاتِ.

عِنْدَمَا انْتَقَلَتْ «مَلَك» إِلَى قَرْيَةِ «قَصْرِ الْبَاسِلِ» جَنُوبَ الْفَيُّومِ بَدَأَتْ تَقُومُ بِمَا كَانَتْ تَقُومُ بِهِ فِي الْقَاهِرَةِ، فَجَعَلَتْ مِنْ بَيْتِهَا مَدْرَسَةً وَمُسْتَشْفًى وَمَشْغَلًا وَدَارًا لِلتَّوْعِيَةِ وَالتَّثْقِيفِ لِلْفَلَّاحَاتِ؛ فَأُطْلِقَ عَلَيْهَا لَقَبُ «بَاحِثَةِ الْبَادِيَةِ».

وَمِثْلَمَا أَثَّرَتْ «مَلَـك» فِي الْفَلَّاحَاتِ.. أَثَّرَتِ الْفَلَّاحَاتُ وَالْبَدَوِيَّاتُ فِي «مَلَـك»، فَبَدَأَتْ تُخَفِّفُ مِنْ حِدَّةِ أَفْكَارِهَا، وَكَتَبَتْ مَقَالَاتٍ جَدِيدَةً تَـرْفُضُ الْحُـرِّيَّةَ الْمُطْلَقَةَ لِلْمَـرْأَةِ، وَتَنْتَقِدُ الانْغِلَاقَ التَّامَّ؛ فَهُوَ مُفْسِدٌ أَيْضًا.

أُصِيبَتْ «مَلَك» بِالْحُمَّى الْأَلْمَـانِيَّةِ، وَمَاتَتْ وَهِيَ فِي رَيْعَـانِ الشَّـبَابِ عَامَ 1918م.

عَائِشَةُ التَّيْمُورِيَّةُ

(مُؤَلِّفَةُ أَوَّلِ رِوَايَةٍ عَرَبِيَّةٍ)

بَيْنَمَا كَانَ «إِسْمَاعِيل بَاشَا تَيْمُور» رَئِيسُ الْحَاشِيَةِ الْخِدِيوِيَّةِ يَجْلِسُ فِي مَكْتَبَتِهِ الْعَامِرَةِ بِمِئَاتٍ مِنَ الْكُتُبِ الثَّمِينَةِ، وَصَلَ إِلَى سَمْعِهِ صَوْتُ ابْنَتِهِ «عَائِشَةَ» ذَاتِ الاثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً وَهِيَ تَقُولُ بِصَوْتٍ تَمْلَؤُهُ الدُّمُوعُ:

- يَا أُمَّاهُ إِنَّنِي لَا أُحِبُّ الطَّهْيَ وَالْمَطْبَخَ؛ إِنَّ رُوحِي لَا تُحِبُّ إِلَّا الْقِرَاءَةَ وَالْعِلْمَ.

وَجَدَ الْأَبُ ابْنَتَهُ غَارِقَةً فِي الدُّمُوعِ، فَرَبَّتَ عَلَى كَتِفِهَا، وَقَالَ:

- لَا تَقْلَقِي يَا «عَائِشَةُ»؛ فَمِنَ الْغَدِ سَيَكُونُ عِنْدَكِ أَسَاتِذَةٌ كِبَارٌ؛ لِيُعَلِّمُوكِ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ وَأَحْكَامَهُ، والأَدَبَ الْعَرَبِيَّ وأُصُولَهُ، والشِّعْرَ وأَوْزَانَهُ، وَاللُّغَتَيْنِ التُّرْكِيَّةَ وَالْفَارِسِيَّةَ .

فِي صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِي الْتَقَتْ «عَائِشَةُ» بِمُعَلِّمِيهَا، وَأَبْدَتْ خِلَالَ أَيَّامٍ قَلِيلَةٍ اسْتِجَابَةً كَبِيرَةً لِفَهْمِ أَوْزَانِ الشِّعْرِ الْعَرَبِيِّ، وَبَدَأَتْ تَكْتُبُ شِعْرًا مَوْزُونًا جَمِيلًا تُهْدِيهِ إِلَى أَبِيهَا .

ذَاتَ يَوْمٍ فَاتَحَتْ «عَائِشَةَ» أُمُّهَا فِي أَمْرٍ لَمْ يَكُنْ يَخْطُرُ لَهَا بِبَالٍ، وَهِيَ بِنْتُ الْأَرْبَعَةَ عَشَرَ عَامًا .. إِذْ قَالَتِ الْأُمُّ:

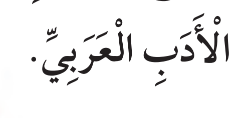
- لَقَدْ تَقَدَّمَ لِخِطْبَتِكِ كَاتِبُ دِيوَانِ خَلِيفَةِ الْمُسْلِمِينَ فِي تُرْكِيَا.. السَّيِّدُ

«مَحْمُود بِك الْإِسْلَامْبُولِي»، وَقَدْ أَعْطَيْنَاهُ كَلِمَةً بِالْمُوَافَقَةِ. فَمَا رَأْيُكِ؟

أَطْرَقَتْ «عَائِشَةُ» خَجَلًا، وَقَالَتْ:

- مُوَافِقَةٌ، وَلَكِنْ أَرْجُو أَنْ تُبَلِّغُوهُ أَنَّ لِي شَرْطًا وَحِيدًا، وَهُوَ أَلَّا يَحْرِمَنِي مِنَ الْقِرَاءَةِ وَكِتَابَةِ الشِّعْرِ وَالْقِصَصِ، وَأَنْ يُوَفِّرَ لِي مَا وَفَّرَهُ أَبِي، بِأَنْ يُحْضِرَ لِي مُعَلِّمِينَ لاسْتِكْمَالِ ثَقَافَتِي الْأَدَبِيَّةِ وَالتَّارِيخِيَّةِ، وَتَعَلُّمِ اللُّغَتَيْنِ الْفَارِسِيَّةِ وَالتُّرْكِيَّةِ.

تَمَّ الزِّفَافُ السَّعِيدُ، وأَقَامَتْ «عَائِشَةُ» فِي قَصْرِهَا الْجَدِيدِ فِي «تُرْكِيَا»، وَأَنْجَبَتْ فَتَاتَيْنِ.. وَظَلَّتْ تَكْتُبُ الشِّعْرَ وَالرِّوَايَةَ وَالْمَقَالَ، وَنَضِجَتْ شَخْصِيَّتُهَا وَاهْتَمَّتْ بِبَيْتِهَا وَزَوْجِهَا وَأَبْنَائِهَا، بَلْ لَمْ تَكْتَفِ بِذَلِكَ حَيْثُ قَامَتْ بِتَرْبِيَةِ أَخِيهَا مِنْ أُمٍّ أُخْرَى، وَهُوَ «أَحْمَدُ تَيْمُور» بَعْدَ مَوْتِ أَبِيهِمَا، وَغَرَسَتْ فِيهِ حُبَّ الثَّقَافَةِ وَالتُّرَاثِ؛ حَتَّى أَصْبَحَ مِنْ أَكْبَرِ مُحَقِّقِي التُّرَاثِ وَعَلَّامَةً فِي الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ.



وَلَقَدْ غَرَسَــتْ «عائِشَــةُ» في بِنْتَيْهَا حُبَّ الْبَيْتِ وَالْأَعْمالِ الْمَنْزِلِيَّةِ، وَحُبَّ الثَّقَافَةِ وَالْأَدَبِ أَيْضًا. وَكَانَتِ ابْنَتُهَــا الْكُبْرى «تَوْحِيدَةُ» بِمَثابَةِ صَدِيقَــةٍ لَهَا، قَرِيبَةٍ إِلَى نَفْسِــهَا. وَعِنْدَمَا خَطَفَهَا الْمَــوْتُ فَجْأَةً، ظَلَّتْ «عَائِشَةُ» تَبْكِي ابْنَتَهَا بِعَشَرَاتِ الْقَصَائِدِ لِمُدَّةِ سَبْعِ سَنَوَاتٍ كامِلَةٍ! حَتَّى أُصِيبَتْ عَيْنَاهَا بِالرَّمَدِ، وَسَاءَتْ حَالَتُهَا الصِّحِّيَّةُ جِدًّا.

فَأَقْنَعَهَا الْأَهْلُ جَمِيعًــا بِضَرُورَةِ تَرْكِ هَذِهِ الْأَحْزَانِ الَّتِي سَــتَقْضِي عَلَيْهَا، وَنَصَحُوهَا بِمُعَاوَدَةِ الْكِتَابَةِ لِلصُّحُفِ، وَالدُّخُولِ في مُنَاقَشَــاتٍ مَعَ مُفَكِّــرِي الْعَرَبِ، فَكَتَبَــتْ في جَرِيدَةِ الْمُؤَيَّــدِ وَالْآدَابِ، وَدَخَلَتْ في مَعْرَكَةٍ ضِدَّ «قَاسِــم أَمِين»، وَكَانَــتْ تَرَى أَنَّ تَرْبِيَــةَ الْبَنَاتِ وَاجِبَةٌ وَتَعْلِيمَهُنَّ أَوْجَبُ، وَقَالَتْ قَوْلَتَهَا الْمَشْــهُورَةَ: لَا تَصْلُحُ الْعَائِلَاتُ إِلَّا بِتَرْبِيَةِ الْبَنَاتِ.

وَمَعَ ذَلِكَ كَانَتْ ضِدَّ السُّــفُورِ وَتَرْكِ الْقِيَــمِ الْأَخْلَاقِيَّةِ الَّتِي تَوَارَثَهَا الْمُجْتَمَعُ.

وَتُوُفِّيَتْ «عَائِشَــةُ التَّيْمُورِيَّةُ» عَامَ 1920م بَعْدَ أَنْ عَاشَتْ 62 عَامًا أَنْجَزَتْ فِيهَا أَوَّلَ رِوَايَةٍ عَرَبِيَّــةٍ في الْعَصْرِ الْحَدِيثِ، وَهِيَ رِوَايَةُ «نَتَائِج الْأَحْــوَالِ في الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَــالِ»، وَكِتَابُ «مِرْآةِ التَّأَمُّــلِ في الْأُمُورِ»، وَدِيوَانَ شِعْرٍ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ بِعُنْوَانِ «حِلْيَة الطِّرَازِ»، وَدِيوَانَ شِعْرٍ بِاللُّغَةِ التُّرْكِيَّةِ بِعُنْوَانِ «شُكُوفَة»، أَوْ «دِيوَان عِصْمَت».



عَائِشَةُ عَبْد الرَّحْمَن

(بِنْتُ الشَّاطِئِ)

طَرَقَتْ «عَائِشَــةُ» ذَاتُ السَّنَوَاتِ السَّبْعِ بَابَ الْبَيْتِ الْقَدِيمِ، وَعِنْدَمَا فَتَحَ جَدُّهَا الْبَابَ انْهَارَتْ بَاكِيَةً، سَــأَلَهَا عَنْ سَــبَبِ بُكَائِهَا. تَمَالَكَتِ الْفَتَاةُ الصَّغِيرَةُ نَفْسَهَا، وَقَالَتْ:

- إِنَّ أَبِي رَفَضَ أَنْ أَذْهَبَ مَعَ صَدِيقَاتِي إِلَى الْمَدْرَسَةِ! هَلْ يُرْضِيكَ هَذَا يَا جَدِّي، وَأَنَا الْأَذْكَى وَالْأَفْضَلُ مِنْ كُلِّ قَرِينَاتِي؟!

قَالَ الْجَدُّ:

- لَنْ يَحْرِمَكِ مِنَ التَّعْلِيمِ يَا ابْنَتِي، سَأَذْهَبُ إِلَيْهِ وَأُقْنِعُهُ بِذَلِكَ.

فِي الْمَسَاءِ ذَهَبَ الْجَدُّ إِلَى ابْنِهِ «عَبْدِ الرَّحْمَنِ» وَالِدِ «عَائِشَةَ»، وَحَاوَلَ أَنْ يَعْرِفَ السَّبَبَ وَرَاءَ رَفْضِهِ لِتَعْلِيمِهَا، فَقَالَ الْأَبُ:

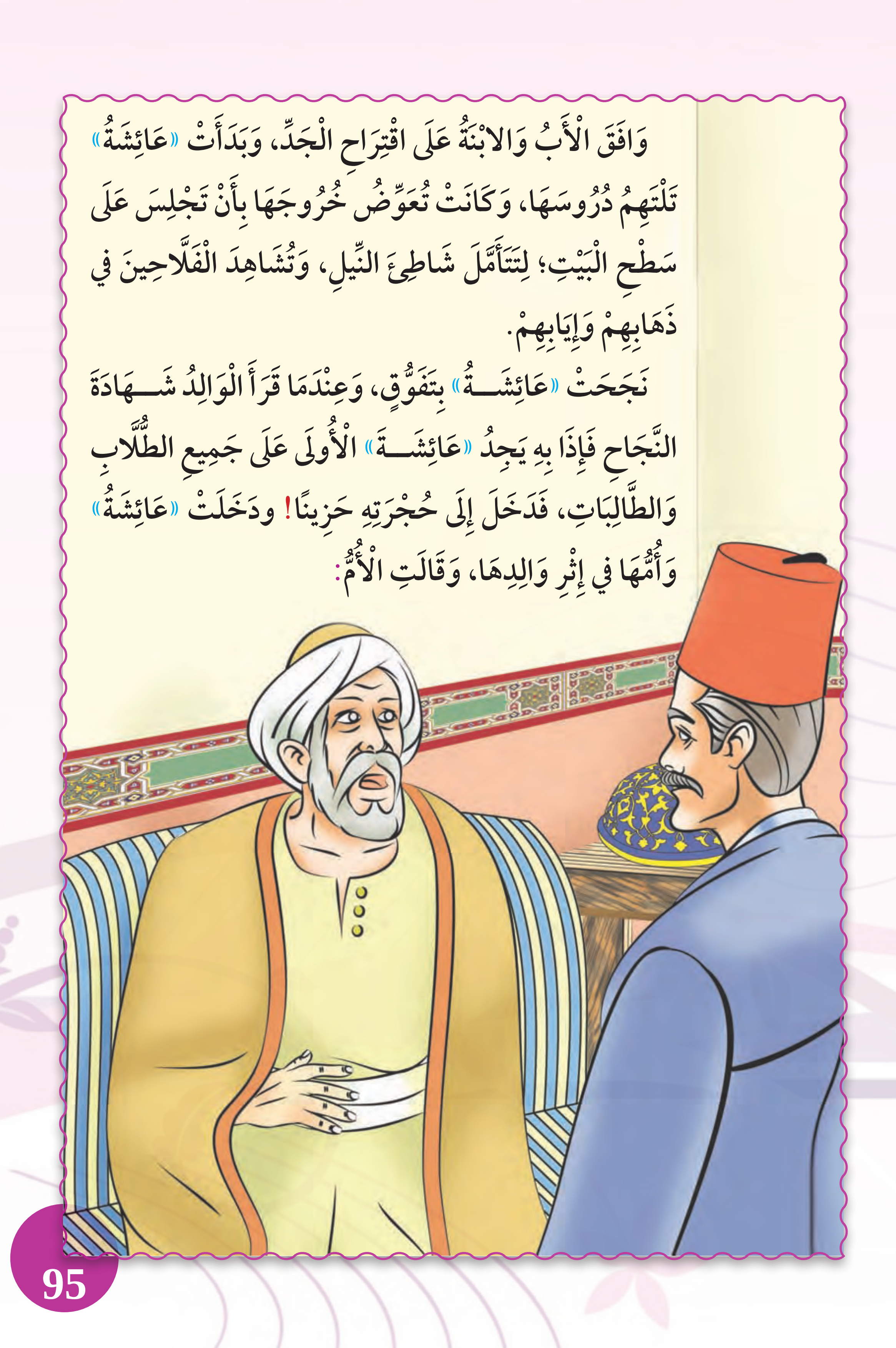
- إِنَّنِي لَا أَرْفُضُ تَعْلِيمَهَا، وَلَكِنِّي وَجَدْتُهَا تُدَوِّنُ فِي دَفْتَرِهَا مُشْــكِلَاتِ بَعْضِ الْفَلَّاحِينَ وَالْفَلَّاحَــاتِ، وَضَبَطْتُ فِي دَفْتَرِهَا بَعْضَ الْكِتَابَاتِ عَنْ غُرُوبِ الشَّمْسِ وَجَمَالِ الْمَنْظَرِ! وَابْنَتِي بَدَأَتْ تَكْبَرُ، وَأَنَا أَخَافُ عَلَيْهَا مِنْ أَنْ يَنْحَرِفَ تَفْكِيرُهَا.

فَقَالَ الْجَدُّ:

- إِذَنْ نُمْسِكُ الْعَصَا مِنَ الْمُنْتَصَفِ، نُحْضِرُ لَهَا كُتُبَ الدِّرَاسَةِ فِي الْبَيْتِ، وَنُسَاعِدُهَا أَنَا وَأَنْتَ حَتَّى تَدْرُسَ دُرُوسَهَا.

وَافَقَ الْأَبُ وَالابْنَةُ عَلَى اقْتِرَاحِ الْجَدِّ، وَبَدَأَتْ «عَائِشَةُ» تَلْتَهِمُ دُرُوسَهَا، وَكَانَتْ تُعَوِّضُ خُرُوجَهَا بِأَنْ تَجْلِسَ عَلَى سَطْحِ الْبَيْتِ؛ لِتَتَأَمَّلَ شَاطِئَ النِّيلِ، وَتُشَاهِدَ الْفَلَّاحِينَ فِي ذَهَابِهِمْ وَإِيَابِهِمْ.

نَجَحَتْ «عَائِشَةُ» بِتَفَوُّقٍ، وَعِنْدَمَا قَرَأَ الْوَالِدُ شَهَادَةَ النَّجَاحِ فَإِذَا بِهِ يَجِدُ «عَائِشَةَ» الْأُولَى عَلَى جَمِيعِ الطُّلَّابِ وَالطَّالِبَاتِ، فَدَخَلَ إِلَى حُجْرَتِهِ حَزِينًا! وَدَخَلَتْ «عَائِشَةُ» وَأُمُّهَا فِي إِثْرِ وَالِدِهَا، وَقَالَتِ الْأُمُّ:



ـ مَا الَّذِي يُضَايِقُكَ يَا «حاج»؟! أَلَا تَفْرَحُ لِتَفَوُّقِ ابْنَتِنَا؟!

فَقَالَ الْأَبُ:

ـ أَفْرَحُ؟! إِنَّ نَجَاحَهَا يَعْنِي أَنْ تَذْهَبَ إِلَى الْجَامِعَةِ، وَأَنَا أَرْفُضُ ذَلِكَ.

تَذَكَّرَتْ «عَائِشَةُ» مَا جَرَى مِنْ سَنَوَاتٍ لَهَا، فَذَهَبَتْ هِيَ وَأُمُّهَا إِلَى جَدِّهَا؛ لِيُقْنِعَ أَبَاهَا الْيَوْمَ كَمَا أَقْنَعَهُ بِالْأَمْسِ.

تَهَلَّلَ وَجْهُ «عَائِشَةَ» عِنْدَمَا وَافَقَ وَالِدُهَا عَلَى رَجَاءِ الْجَدِّ، وَالْتَحَقَتْ بِالْجَامِعَةِ، وَلَفَتَتِ انْتِبَاهَ أَسَاتِذَتِهَا بِنُبُوغِهَا الْأَدَبِيِّ وَرَغْبَتِهَا فِي الْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ..

وَكَانَ أَكْثَرَ مَنْ أَبْدَى رِعَايَةً بِهَا أُسْتَاذُهَا «أَمِين الْخُولِي» الَّذِي رَأَى فِيهَا عَالِمَةً كَبِيرَةً فِي الْمُسْتَقْبَلِ، فَشَجَّعَهَا وَأَنَارَ لَهَا الطَّرِيقَ، وَأَسْفَرَ ذَلِكَ عَنْ حَدَثٍ مُهِمٍّ فِي حَيَاتِهَا، فَقَدْ طَرَقَتْ بَابَ مَكْتَبِ أُسْتَاذِهَا «أَمِين الْخُولِي»؛ لِكَيْ تُهْدِيَهُ نُسْخَةً مِنْ كِتَابِهَا الْأَوَّلِ الَّذِي كَتَبَتْهُ وَهِيَ فِي الْفِرْقَةِ الثَّانِيَةِ بِكُلِّيَّةِ الْآدَابِ بِعُنْوَانِ «الرِّيفِ الْمِصْرِيِّ»، فَفَرِحَ بِهِ أُسْتَاذُهَا وَأَرْشَدَهَا إِلَى مُسَابَقَةٍ تُجْرِيهَا الْحُكُومَةُ تَحْتَ عُنْوَانِ «إِصْلَاحِ الرِّيفِ الْمِصْرِيِّ» فَتَقَدَّمَتْ عَائِشَةُ لِلْمُسَابَقَةِ، وَفَازَتْ بِهَا.

وَبَعْدَ أَنْ تَخَرَّجَتْ تَزَوَّجَتْ أُسْتَاذَهَا «أَمِين الْخُولِي»، فَزَادَتْ رُسُوخًا فِي الْعِلْمِ وَالثَّقَافَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، خَاصَّةً أَنَّهَا عُيِّنَتْ مُعِيدَةً بِالْكُلِّيَّةِ، فَحَصَلَتْ عَلَى الْمَاجِسْتِير بَعْدَ سَنَتَيْنِ مِنَ التَّخَرُّجِ، ثُمَّ عَلَى الدُّكْتُورَاه.

وَتَوالَتْ كِتَابَاتُهَا الْإِسْلَامِيَّةُ، وَمِنْ كُتُبِهَا: «نِسَاءُ النَّبِيِّ»، وَ«أُمُّ النَّبِيِّ» وَغَيْرُهَا مِنَ الْكُتُبِ الَّتِي نَالَتْ شُهْرَةً وَاسِعَةً، وَبَدَأَتْ كُتُبُهَا تَحْظَى بِالتَّرْجَمَةِ إِلَى لُغَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ.

وَظَلَّتْ «عَائِشَةُ عَبْد الرَّحْمَنِ» فِي رِحْلَتِهَا الْعِلْمِيَّةِ حَتَّى حَصَلَتْ عَلَى أَعْلَى الْأَوْسِمَةِ وَالْجَوَائِزِ، وَكَانَ آخِرُهَا «جَائِزَةَ الْمَلِكِ فَيْصَلِ الْعَالَمِيَّةَ» فِي الدِّرَاسَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ كَأَوَّلِ امْرَأَةٍ تَحْظَى بِهَذِهِ الْجَائِزَةِ.

وَرَحَلَتْ بِنْتُ الشَّاطِئِ بَعْدَ رِحْلَةِ عَطَاءٍ كَبِيرَةٍ اسْتَمَرَّتْ 86 عَامًا فِي أَوَّلِ دِيسَمْبِر عَامَ 1998م.



صَفِيَّةُ زَغْلُول

(أُمُّ الْمِصْرِيِّينَ)

كَانَ السَّــائِسُ الَّذِي يَقُودُ الْعَرَبَةَ «الْحَنْطُورَ» ذَاتَ الْحِصَانَيْنِ يُغَطِّي جَوَانِــبَ الْعَرَبَةِ؛ حَتَّى لَا يَرَى أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ الْفَتَاةَ ذَاتَ الاثْنَيْ عَشَــرَ عَامًا الَّتِي تَرْكَبُ الْعَرَبَةَ، فَهِيَ «صَفِيَّةُ مُصْطَفَى فَهْمِي» ابْنَةُ رَئِيسِ وُزَرَاءِ مِصْرَ.

نَزَلَتْ «صَفِيَّةُ» وَدَخَلَتْ إِلَى النَّادِي وَهِيَ تُغَطِّي وَجْهَهَا كَعَادَةِ فَتَيَاتِ مِصْرَ، وَعِنْدَمَا اقْتَرَبَتْ مِنْ بَعْضِ السَّيِّدَاتِ سَمِعَتْهُنَّ يَقُلْنَ:

- لَقَدِ احْتَلَّتْ بِرِيطَانْيَا مِصْرَ عَسْكَرِيًّا مُنْذُ عِدَّةِ سَنَوَاتٍ، لَكِنَّ الاحْتِلَالَ الْفِعْلِيَّ لَــمْ يَبْدَأْ إِلَّا عِنْدَمَا اخْتَارَ الْإِنْجِلِيزُ «مُصْطَفَى فَهْمِي» رَئِيسًــا لِلْوِزَارَةِ؛ فَهُوَ صَدِيقُ الْإِنْجِلِيزِ الْمَحْبُوبُ.

كَادَتْ «صَفِيَّةُ» تَصْرُخُ فِيهِمْ؛ فَـ «مُصْطَفَى فَهْمِي» هَذَا هُوَ وَالِدُهَا، وَلَكِنَّهَــا كَتَمَتْ صَرْخَتَهَا، وعَادَتْ إِلَى بَيْتِهَا حَزِينَةً، وَتَحَوَّلَتِ الْحَيَاةُ فِي عَيْنَيْهَا إِلَى شَيْءٍ سَخِيفٍ.

عِنْدَمَا أَتَمَّتِ السَّابِعَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِهَا، تَقَدَّمَ لَهَا مُحَامٍ يَكْبُرُهَا بِثَمَانِيَةَ عَشَرَ عَامًا، إِنَّهُ «سَعْدُ زَغْلُول»، وَكَانَ قَدْ نَشَأَ نَشْأَةَ الْفَلَّاحِينَ، وَلَكِنَّهُ قَدْ ذَاعَ صِيتُهُ بِحُبِّ الْبِلَادِ، فَوَافَقَتْ «صَفِيَّةُ» عَلَى الزَّوَاجِ مِنْهُ.

وَجَدَتْ «صَفِيَّةُ» زَوْجَهَا رَجُلًا طَيِّبًا حَنُونًا؛ فَقَدْ كانَ لَهَا نِعْمَ الزَّوْجُ.

وَذَاتَ لَيْلَةٍ ظَلَّ «سَعْدٌ» مُؤَرَّقًا في غُرْفَةِ نَوْمِهِ لَا يَنَامُ، فَاقْتَرَبَتْ مِنْهُ «صَفِيَّةُ» وَقَالَتْ:

- أَعْرِفُ مَا يُضَايِقُكَ، أَنَّكَ لَنْ تَكُونَ أَبًا؛ لِأَنَّنِي لَنْ أُنْجِبَ لَكَ وَلَدًا.

هُنَا قَالَ «سَعْدٌ» لِزَوْجَتِهِ «صَفِيَّةَ»:

- الْأَمْرُ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ، لَقَدْ ذَهَبْتُ أَنَا وَعَدَدٌ مِنَ الْوَطَنِيِّينَ لِأَخْذِ تَصْرِيحٍ لِلسَّفَرِ إِلَى فَرَنْسَا؛ لِنَعْرِضَ مُشْكِلَةَ احْتِلَالِ مِصْرَ عَلَى الدُّوَلِ الْأُورُوبِّيَّةِ، وَلَكِنَّ السُّلُطَاتِ الْإِنْجِلِيزِيَّةَ رَفَضَتْ وَقَالَتْ: مَنِ الَّذِي أَعْطَاكُمُ الْحَقَّ لِتَتَكَلَّمُوا نِيَابَةً عَنِ الْمِصْرِيِّينَ؟!



فَبَدَأْنَا في جَمْعِ تَوْكيلاتٍ مِنَ الْمِصْرِيِّينَ بِأَنْ نَذْهَبَ إِلَى فَرَنْسَا لِنَتَفَاوَضَ بِاسْمِ شَعْبِ مِصْرَ، وَلَكِنِّي عَلِمْتُ أَنَّ الْإِنْجِلِيزَ يُحَاوِلُونَ تَعْطِيلَ جَمْعِ التَّوْقِيعَاتِ..

بَعْدَ قَلِيلٍ دَقَّ الْبَابُ بِقُوَّةٍ وَغِلْظَةٍ.. فَتَحَ الْخَادِمُ الْبَابَ، فَدَخَلَتْ قُوَّةٌ إِنْجِلِيزِيَّةٌ وَاعْتَقَلَتْ «سَعْدَ زَغْلُول».

مَعَ ظُهْرِ الْيَوْمِ التَّالِي فُوجِئَتْ «صَفِيَّةُ» بِآلَافِ الْمِصْرِيِّينَ يَهْتِفُونَ حَوْلَ بَيْتِهَا: «سَعْدُ.. سَعْدُ.. يَحْيَا سَعْدُ»، فَطَلَبَتْ مِنْ سِكِرْتِيرَتِهَا أَنْ تَخْرُجَ لِلْجُمْهُورِ لِتُلْقِيَ كَلِمَةً نِيَابَةً عَنْهَا؛ لأَنَّهَا كَانَتْ تَبْكِي وَلَا تُحِبُّ أَنْ يَرَاهَا النَّاسُ ضَعِيفَةً... كَتَبَتْ «صَفِيَّةُ» في كَلِمَتِهَا:

«إِذَا كَانَتِ السُّلْطَةُ الْإِنْجِلِيزِيَّةُ الْغَاشِمَةُ قَدِ اعْتَقَلَتْ «سَعْدًا» وَلِسَانَ «سَعْدٍ»، فَإِنَّ قَرِينَتَهُ وَشَرِيكَةَ حَيَاتِهِ تُشْهِدُ اللهَ وَالْوَطَنَ عَلَى أَنْ تَضَعَ نَفْسَهَا في نَفْسِ الْمَكَانِ الَّذِي وَضَعَ زَوْجُهَا الْعَظِيمُ نَفْسَهُ فِيهِ مِنَ التَّضْحِيَةِ وَالْجِهَادِ مِنْ أَجْلِ الْوَطَنِ»

وَفَتَحَتْ «صَفِيَّةُ» بَيْتَ «سَعْدِ زَغْلُول» لاسْتِقْبَالِ الْوَطَنِيِّينَ مِنْ كُلِّ مُحَافَظَاتِ مِصْرَ؛ حَتَّى أُطْلِقَ عَلَيْهِ «بَيْتُ الْأُمَّةِ»، وَأُطْلِقَ عَلَيْهَا لَقَبُ «أُمِّ الْمِصْرِيِّينَ».

عَادَ «سَعْدٌ» مِنْ مَنْفَاهُ لِيُوَاصِلَ جِهَادَهُ، وَ«صَفِيَّةُ» وَرَاءَهُ تَخْطُبُ في نِسَاءِ مِصْرَ، تَدْعُوهُنَّ لِلْمُشَارَكَةِ في الثَّوْرَةِ، حَتَّى تَحَقَّقَ لَهَا مَا أَرَادَتْ،



وَخَرَجَتْ نِسَاءُ مِصْرَ - لأَوَّلِ مَرَّةٍ - في مُظَاهَرَاتِ ثَوْرَةِ 1919م.

وَنَجَحَتِ الثَّوْرَةُ، وَأَعْلَنَ الإِنْجِلِيزُ اسْتِقْلَالَ مِصْرَ.

وَتَمَّ وَضْعُ دُسْتُورٍ لِلْبِلَادِ عَامَ 1922م، وَتَشَكَّلَتِ الْوِزَارَةُ بِرِئَاسَةِ زَوْجِهَا «سَعْدِ زَغْلُول».

وظَلَّتْ «صَفِيَّةُ» مُسَانِدَةً لِزَوْجِهَا «سَعْدِ زَغْلُول» إِلَى أَنِ انْتَقَلَ إِلَى رِحَابِ رَبِّهِ، وَحَزِنَتْ «صَفِيَّةُ» لِمَوْتِ زَوْجِهَا حُزْنًا جَعَلَهَا تَعْتَزِلُ في قَصْرِهَا فَتْرَةً كَبِيرَةً.

سَمِيرَة مُوسَى

(أَوَّلُ عَالِمَةِ ذَرَّةٍ عَرَبِيَّةٍ)

فِي مَكْتَبِ رَئِيسِ جَامِعَةِ «سَان لُوِيس» بِوِلَايَةِ «مِيسُورِي» الْأَمْرِيكِيَّةِ، رَشَفَتِ الدُّكْتُورَةُ «سَمِيرَة مُوسَى» آخِرَ رَشْفَةٍ مِنْ فِنْجَانِ قَهْوَتِهَا الْعَرَبِيَّةِ، وَقَالَتْ لِرَئِيسِ الْجَامِعَةِ:

- لَقَدْ تَوَصَّلْتُ إِلَى مُعَادَلَةٍ لِتَفْتِيتِ وَانْشِطَارِ الْمَعَادِنِ الرَّخِيصَةِ كَالنُّحَاسِ، يُمْكِنُ الاسْتِفَادَةُ مِنْهَا فِي تَصْنِيعِ قُنْبُلَةٍ ذَرِّيَّةٍ رَخِيصَةِ التَّكَالِيفِ بَدَلًا مِنْ مَعْدِنِ الْيُورَانْيُوم غَالِي الثَّمَنِ الَّذِي تَحْتَكِرُهُ الدُّوَلُ الْغَنِيَّةُ وَالْمُتَقَدِّمَةُ.

انْتَفَضَ رَئِيسُ الْجَامِعَةِ وَاقِفًا، وَاحْمَرَّ وَجْهُهُ وَهُوَ يَقُولُ:

- قُنْبُلَةٌ ذَرِّيَّةٌ رَخِيصَةُ التَّكَالِيفِ؟! هَذَا مَعْنَاهُ تَهْدِيدُ السَّلَامِ الْعَالَمِيِّ وَزِيَادَةُ الْخَطَرِ النَّوَوِيِّ وَالذَّرِّيِّ.

بِهُدُوءٍ قَالَتِ الدُّكْتُورَةُ «سَمِيرَة»:

- صَدِّقْنِي يَا سَيِّدِي.. إِنَّ السَّلَامَ لَنْ يَتَحَقَّقَ إِلَّا إِذَا امْتَلَكَ الْعَرَبُ الْقُنْبُلَةَ الذَّرِّيَّةَ؛ حَتَّى يَحْدُثَ التَّعَادُلُ الذَّرِّيُّ فِي الْمِنْطَقَةِ بَيْنَ الْعَرَبِ وَإِسْرَائِيلَ.

هُنَا تَوَقَّفَ رَئِيسُ الْجَامِعَةِ عَنِ الْحَدِيثِ، وَتَشَاغَلَ بِقِرَاءَةِ مِلَفٍّ أَمَامَهُ، فَاسْتَأْذَنَتِ الدُّكْتُورَةُ «سَمِيرَة» وَشَكَرَتْهُ عَلَى اللِّقَاءِ.

فِي الْمَسَاءِ كَانَتِ الدُّكْتُورَةُ «سَمِيرَة مُوسَى» تَكْتُبُ رِسَالَةً إِلَى وَالِدِهَا فِي الْقَاهِرَةِ.. كَتَبَتْ فِيهَا مَا دَارَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ رَئِيسِ الْجَامِعَةِ مِنْ حِوَارٍ، وَأَبْدَتِ انْدِهَاشَهَا مِنَ النَّظْرَةِ الْغَاضِبَةِ الَّتِي وَجَّهَهَا إِلَيْهَا رَئِيسُ الْجَامِعَةِ، عِنْدَمَا تَحَدَّثَتْ عَنِ التَّعَادُلِ الذَّرِّيِّ بَيْنَ الْعَرَبِ وَإِسْرَائِيلَ حَتَّى يَتَحَقَّقَ السَّلَامُ.

وَبَيْنَمَا كَانَتْ تَكْتُبُ آخِرَ سُطُورِ الرِّسَالَةِ دَقَّ جَرَسُ الْبَابِ فَفَتَحَتْهُ، فَإِذَا بِرَجُلٍ غَامِضٍ يُعَرِّفُهَا بِنَفْسِهِ بِأَنَّهُ «الدُّكْتُورُ جَاك» أُسْتَاذُ الذَّرَّةِ فِي أَكْبَرِ مَعْمَلٍ ذَرِّيٍّ أَمْرِيكِيٍّ، وَيَسْتَأْذِنُ فِي الدُّخُولِ، فَأَذِنَتْ لَهُ .

قَالَ الدُّكْتُورُ الْغَامِضُ:

ـ عَلِمْتُ يَا دُكْتُورَةُ «سَمِيرَة» بِخَبَرِ نَظَرِيَّتِكِ الْجَدِيدَةِ عَنِ انْشِطَارِ الْمَعَادِنِ الرَّخِيصَةِ، وَهَذَا مَا يَدْعُونِي لِلْحَدِيثِ مَعَكِ الْآنَ ، لِمَاذَا لَا تَتَعَاوَنُ الدُّوَلُ مِنْ أَجْلِ أَنْ تَكُونَ الذَّرَّةُ لِلْأَغْرَاضِ السِّلْمِيَّةِ؟!

قَالَتِ الدُّكْتُورَةُ «سَمِيرَة» فِي هُدُوءِ الْعُلَمَاءِ:

ـ اسْمَحْ لِي يَا زَمِيلِي أَنْ أُوَضِّحَ لَكَ أَنَّنِي كَتَبْتُ فِي أَحَدِ بُحُوثِي أَنَّنِي أَتَمَنَّى أَنْ يَكُونَ الْعِلَاجُ بِالذَّرَّةِ سَهْلًا وَرَخِيصًا مِثْلَ الْعِلَاجِ بِالْأَسْبِرِين، وَلَا تَنْسَ أَنَّنِي مَارَسْتُ ذَلِكَ فِعْلًا فِي مُسْتَشْفَى الْقَصْرِ الْعَيْنِيِّ فِي وَطَنِي مِصْرَ؛ حَيْثُ عَالَجْتُ مَرْضَى السَّرَطَانِ بِاسْتِخْدَامِ الذَّرَّةِ؛ فَأَنَا أُومِنُ بِاسْتِخْدَامِ الذَّرَّةِ فِي الْأَغْرَاضِ السِّلْمِيَّةِ قَوْلًا وَعَمَلًا.

ابْتَسَمَ الدُّكْتُورُ الْغَامِضُ وَقَالَ:

ـ مَعِي دَعْوَةٌ لَكِ لِزِيَارَةِ الْمَعْمَلِ الذَّرِّيِّ الَّذِي أَعْمَلُ بِهِ. وَمَعْذِرَةً أَنْتِ تَعْلَمِينَ حَسَاسِيَةَ هَذِهِ الدَّعَوَاتِ.

تَصَفَّحَتِ الدُّكْتُورَةُ الدَّعْوَةَ سَرِيعًا، وَقَالَتْ لَهُ:

ـ شُكْرًا لَكَ، سَأَنْتَظِرُ السَّائِقَ الْخَاصَّ بِالْمَعْمَلِ غَدًا.

عِنْدَمَا سَارَتِ السَّيَّارَةُ فِي طَرِيقٍ جَبَلِيٍّ مُرْتَفِعٍ تَقِلُّ فِيهِ السَّيَّارَاتُ، بَدَأَ السَّائِقُ يُوَجِّهُ السَّيَّارَةَ بِاتِّجَاهِ مُنْحَدَرٍ سَحِيقٍ، وَعِنْدَمَا بَدَأَتِ السَّيَّارَةُ تَسْقُطُ مِنَ ارْتِفَاعِهَا الشَّاهِقِ، قَفَزَ السَّائِقُ مِنَ السَّيَّارَةِ وَتَرَكَهَا تَهْوِي إِلَى الْقَاعِ! وَقَالَ وَهُوَ يَهْرُبُ:

ـ لَعَلَّكِ يَا دُكْتُورَةُ قَدْ عَرَفْتِ مَنْ نَحْنُ! وَمَاذَا نُرِيدُ!



سَهِيرُ الْقَلَمَاوِي

(السَّيِّدَةُ الْأُولَى دائِمًا)

في لَيْلَةٍ شِتْوِيَّةٍ مِنْ لَيَالِي الْقَاهِرَةِ، كَانَتْ أُسْرَةُ الْفَتَاةِ «سَهير الْقَلَمَاوِي» تَجْلِسُ في صَالُونِ الْبَيْتِ في جِلْسَةٍ دَافِئَةٍ مَعَ صَدِيقِ الْأُسْرَةِ الدُّكْتُورِ «طَه حُسَيْن»، دَخَلَتِ الْأُمُّ قَائِلَةً:

- أَهْلًا بِكَ يَا دُكْتُور «طَهَ» في بَيْتِنَا ، لَقَدْ أَصَرَّتِ ابْنَتُنَا «سَهير» عَلَى أَنْ تُقَدِّمَ لَكَ قَهْوَتَكَ الْمُفَضَّلَةَ بِنَفْسِهَا.

فَقَالَ الدُّكْتُورُ «طَهَ» مَازِحًا:

- هُنَاكَ غَرَضٌ إِذَنْ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ .. مَا هُوَ يَا تُرَى؟

فَقَالَتِ الْفَتَاةُ «سَهير» في أَدَبٍ جَمٍّ:

- إِنَّنِي يَا أُسْتَاذِي أَتَمَنَّى أَنْ أُصْبِحَ طَبِيبَةً، وَأُسْرَتِي كُلُّهَا تُشَجِّعُنِي لِتَحْقِيقِ هَذَا الْحُلْمِ، وَلَكِنَّنِي أَعْشَقُ كِتَابَةَ الْقِصَصِ أَيْضًا.

فَقَالَ الدُّكْتُورُ «طَهَ»:

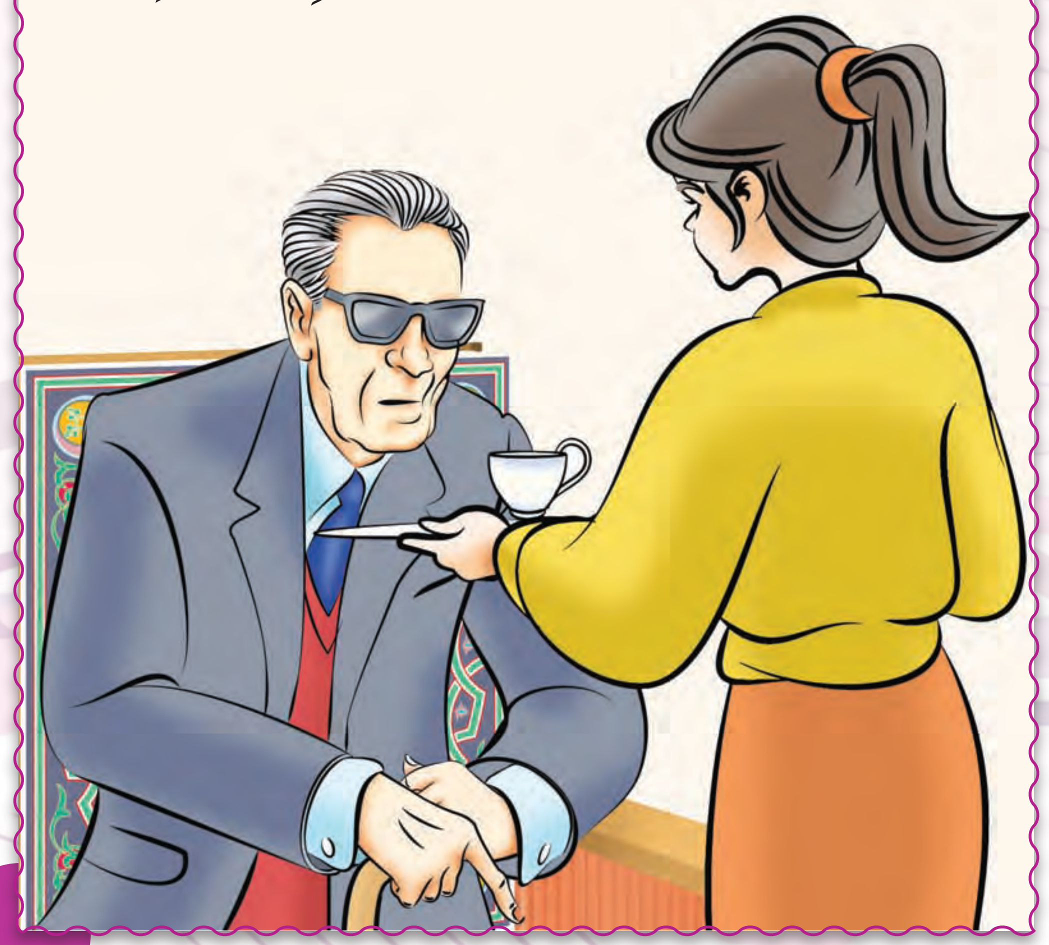
- دَعِينَا نَسْتَمِعْ إِلَى قِصَّتِكِ وَسَنَحْكُمُ.. هَلْ لَكِ عَلَاقَةٌ بِالْأَدَبِ أَوْ لَا؟

قَرَأَتِ الْفَتَاةُ إِحْدَى قِصَصِهَا، وَالدُّكْتُورُ يُصْغِي بِشَغَفٍ لِأُسْلُوبِهَا الْعَرَبِيِّ الْفَخْمِ، وَأَلْفَاظِهَا الَّتِي تَنُمُّ عَنْ وَعْيٍ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَبِالْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ. وَبَعْدَ أَنْ أَنْهَتْ قِصَّتَهَا، انْفَجَرَ الدُّكْتُورُ «طَه حُسَيْن» بِعِبَارَاتِ

الْإِطْرَاءِ وَالْمَدِيحِ عَلَى الْفَتَاةِ، وَقَالَ:

- إِنَّ مَا يَشْغَلُنِي الْآنَ يَا ابْنَتِي هُوَ كَيْفَ أُقْنِعُكِ وَأُقْنِعُ الْأُسْرَةَ بِأَنَّ مُسْتَقْبَلَكِ لَيْسَ فِي الطِّبِّ بَلْ فِي الْأَدَبِ، وَلِي رِجَاءٌ عِنْدَ أَبَوَيْكِ..وَهُوَ أَنْ تَدْخُلِي كُلِّيَّةَ الْآدَابِ لِتَدْرُسِي اللُّغَةَ الْعَرَبِيَّةَ وَآدَابَهَا، وَصَدِّقِينِي.. الْمُسْتَقْبَلُ الْكَبِيرُ يَفْتَحُ ذِرَاعَيْهِ لَكِ مُرَحِّبًا .

اقْتَنَعَ الْجَمِيعُ بِوِجْهَةِ نَظَرِهِ. وَبَدَأَتِ الْفَتَاةُ «سُهِير الْقَلَمَاوِي» تَنْظُرُ لِدِرَاسَتِهَا نَظْرَةً أُخْرَى، وَاسْتَمَرَّتْ فِي كِتَابَةِ الْقِصَصِ، وَتَعَدَّتْهَا إِلَى كِتَابَةِ



الْمَقَالَةِ الْأَدَبِيَّةِ. وَاجْتَازَتِ امْتِحَانَ الْبَكَالُورْيَا، وَالْتَحَقَتْ بِكُلِّيَّةِ الْآدَابِ؛ لِتُصْبِحَ أَوَّلَ فَتَاةٍ تَدْخُلُ الْجَامِعَةَ فِي الْقِسْمِ الْأَدَبِيِّ.

تَخَرَّجَتْ «سَـــهير الْقَلَمَاوِي» فِي كُلِّيَّـــةِ الْآدَابِ، وَكَانَتِ الْأُولَى عَلَى دُفْعَتِهَا، وَسَـــافَرَتْ إِلَى جَامِعَةِ «السُّـــورْبُون» بِتَوْصِيَةٍ مِنْ أُسْتَاذِهَا «طَه حُسَـــيْن» لِدِرَاسَـــةِ الْمَاجِسْـــتِير هُنَاكَ، وَحَصَلَتْ عَلَى الْمَاجِسْتِير ثُمَّ الدُّكْتُورَاه؛ لِتُصْبِحَ أَوَّلَ أُسْتَاذَةٍ فِي الْجَامِعَةِ فِي كُلِّيَّةِ الْآدَابِ.

وَتَقَدَّمَتْ بِرِسَـــالَتِهَا لِلْمَاجِسْـــتِير لِنَيْلِ جَائِزَةِ مَجْمَعِ اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، فَحَصَلَتْ عَلَى الْجَائِزَةِ الْأُولَى.

وَتَوَلَّتْ «سَـــهير الْقَلَمَاوِي» الْقِسْـــمَ الْأَدَبِيَّ فِي عِدَّةِ صُحُفٍ، مِنْهَا: الْهِلَال، وَالْمُصَوَّر، وَالسِّيَاسَـــة، وَغَيْرِهَا. وَحَصَدَتْ جَائِزَةَ الدَّوْلَةِ عَامَ 1963م مُنَاصَفَةً مَعَ الدُّكْتُور «شَوْقِي ضَيْف».

وَمِنْ هُنَـــا كَلَّفَتْهَا الدَّوْلَةُ لِتَكُونَ أَوَّلَ رَئِيـــسٍ لِلْهَيْئَةِ الْعَامَّةِ لِلْكِتَابِ، فَنَهَضَتْ بِالنَّشْـــرِ وَالطَّبْعِ وَالتَّوْزِيعِ، وَأَسَّسَـــتْ مَعْرِضَ الْقَاهِرَةِ الدَّوْلِيَّ لِلْكِتَـــابِ؛ لِيَطَّلِعَ مِنْ خِلَالِهِ الْمِصْرِيُّونَ عَلَى ثَقَافَـــةِ الْعَالَمِ وَمَطْبُوعَاتِهِ، وَاخْتِيرَتْ بِسَـــبَبِ مَجْهُودَاتِهَا الثَّقَافِيَّةِ رَئِيسًـــا لِلَجْنَةِ الثَّقَافَـــةِ الْعَرَبِيَّةِ بِمُنَظَّمَةِ التَّرْبِيَـــةِ وَالْعُلُومِ وَالثَّقَافَةِ «الْيُونِسْـــكُو»، وَاخْتِيرَتْ أَمِينًا عَامًّا لِلاتِّحَادِ النِّسَائِيِّ الْعَرَبِيِّ.

وَلَـــمْ تَنْسَ الدُّكْتُورَةُ «سَـــهِير الْقَلَمَاوِي» الْقَلَـــمَ وَالْإِبْدَاعَ فِي زَحْمَةِ

مَشَــاغِلِهَا السِّيَاسِــيَّةِ وَالْإِدَارِيَّةِ، فَكَتَبَتْ وَتَرْجَمَتْ عَشَرَاتِ الْكُتُبِ، وَأَبْدَعَــتْ عِدَّةَ رِوَايَاتٍ رَائِــدَةً فِي الْمَجَالِ الْأَدَبِيِّ . كَمَا أَسْــهَمَتْ فِي تَأْسِــيسِ اتِّحَادِ الْكُتَّابِ، وَكَانَتْ عُضْوًا بِمَجْلِسِ إِدَارَتِهِ مَعَ كِبَارِ كُتَّابِ مِصْرَ مِثْل: «نَجِيب مَحْفُوظ» وَ«تَوْفِيق الْحَكِيم» وَ«يُوسُــف إِدْرِيس» وَ«ثَرْوَت أَبَاظَة» وَغَيْرِهِمْ . كَمَا أَسَّسَتْ مَعَ «يُوسُف إِدْرِيس» وَ«ثَرْوَت أَبَاظة» وَغَيْرِهِمْ نَادِيَ الْقِصَّةِ، وَكَانَتْ عُضْوًا بِمَجْلِسِ إِدَارَتِهِ.

وَتُوُفِّيَتِ الْكَاتِبَةُ الْكَبِيرَةُ عَامَ 1997م بَعْدَ رِحْلَةٍ كَبِيرَةٍ مِنَ الْعَطَاءِ .



أُمُّ كُلْثُومٍ

(كَوْكَبُ الشَّرْقِ)

كَانَتْ «فَاطِمَةُ» مَشْغُولَةً بِوَضْعِ الْمَاءِ وَالْحُبُوبِ لِدَجَاجَاتِهَا عِنْدَمَا جَاءَهَا صَوْتُ زَوْجِهَا مُؤَذِّنُ مَسْجِدِ قَرْيَةِ «طَمَاي الزَّهَايِرَةِ» رَافِعًا أَذَانَ الظُّهْرِ، فَخَرَجَتْ لِكَيْ تَتَوَضَّأَ، فَوَجَدَتِ ابْنَتَهَا «أُمَّ كُلْثُومٍ» ذَاتَ الْعَامَيْنِ تَقِفُ عَلَى عَتَبَةِ الْبَابِ، وَتُرَدِّدُ الْأَذَانَ بِصَوْتٍ جَمِيلٍ وَحُرُوفٍ صَحِيحَةٍ.

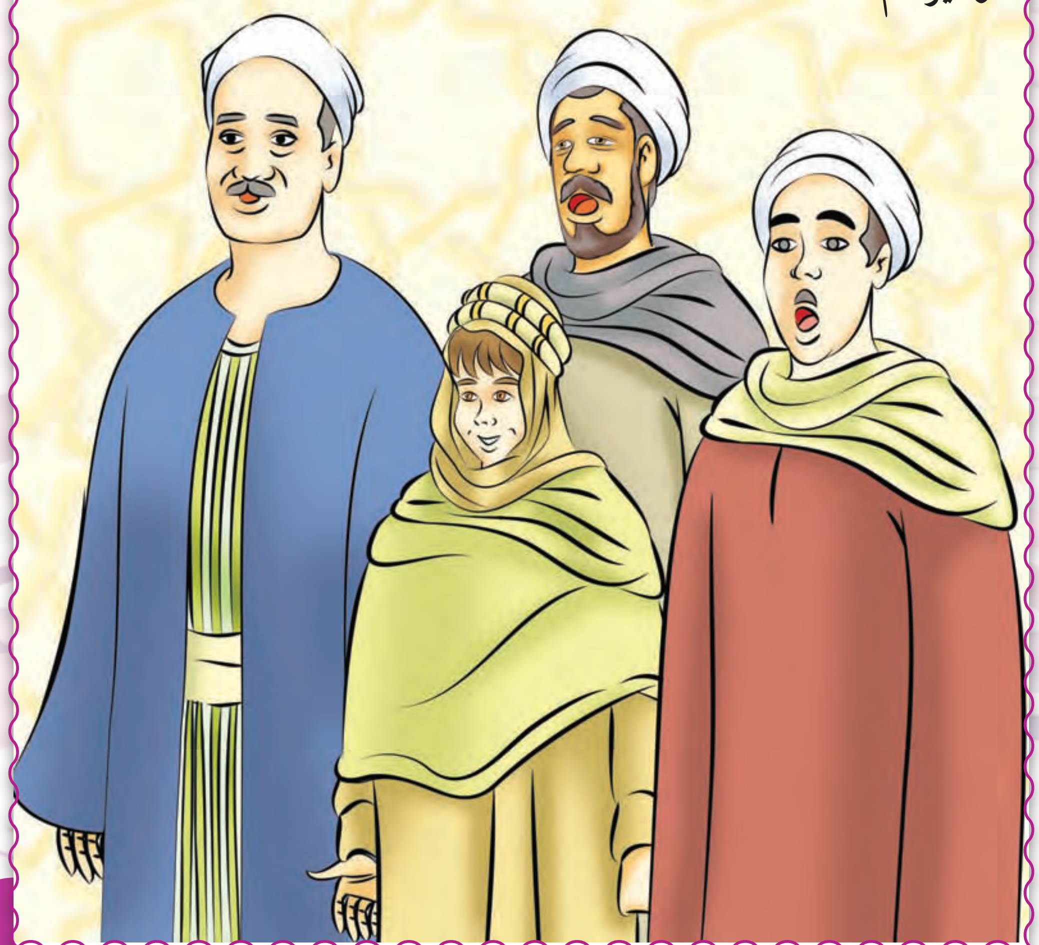
وَعِنْدَمَا وَصَلَ زَوْجُهَا «الشَّيْخُ إِبْرَاهِيمُ» إِلَى الْبَيْتِ، حَكَتْ لَهُ زَوْجَتُهُ مَا فَعَلَتْهُ ابْنَتُهُمَا «أُمُّ كُلْثُومٍ»، فَقَرَّرَ أَنْ يُدْخِلَهَا الْكُتَّابَ؛ لِتَحْفَظَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ.

كَوَّنَ الْأَبُ مُؤَذِّنُ الْمَسْجِدِ فِرْقَةَ إِنْشَادٍ دِينِيٍّ؛ لِإِحْيَاءِ بَعْضِ الْمُنَاسَبَاتِ الدِّينِيَّةِ، وَلَاحَظَ أَنَّ ابْنَتَهُ «أُمَّ كُلْثُومٍ» تُرَدِّدُ الْقَصَائِدَ الصَّعْبَةَ فِي مَدْحِ الرَّسُولِ ﷺ، وَتُغَنِّي بِصَوْتٍ أَجْمَلَ مِنْ أَصْوَاتِ أَعْضَاءِ الْفِرْقَةِ، فَأَخَذَهَا مَعَهُ فِي هَذِهِ الْمُنَاسَبَاتِ، وَأَلْبَسَهَا زِيَّ الْغِلْمَانِ، وَوَضَعَ عِقَالًا عَلَى رَأْسِهَا؛ تَمَشِّيًا مَعَ قَوَاعِدِ الِاحْتِشَامِ السَّائِدَةِ.

وَذَاتَ لَيْلَةٍ وَعِنْدَمَا كَانَتْ «أُمُّ كُلْثُومٍ» تُنْشِدُ إِحْدَى الْقَصَائِدِ، اسْتَمَعَ لَهَا الشَّيْخُ «أَبُو الْعِلَا مُحَمَّد»، فَأَشَارَ عَلَى وَالِدِهَا أَنْ يَنْزِلَ بِابْنَتِهِ إِلَى الْقَاهِرَةِ لِتُغَنِّيَ وَتُنْشِدَ، وَتَتَعَلَّمَ قَوَاعِدَ الْفَنِّ الرَّاقِي، فَوَافَقَ وَالِدُهَا.

وَقَدِمَتْ «أُمُّ كُلْثُوم» إِلَى الْقَاهِرَةِ عَامَ 1924م وَهِيَ ابْنَةُ الْعِشْرِينَ عَامًا.

بَدَأَتْ «أُمُّ كُلْثُومٍ» تَقْرَأُ الشِّعْرَ الْقَدِيمَ وَالْجَدِيدَ، وَاخْتَارَتْ قَصَائِدَ لِـ «أَبِي فِرَاسٍ الْحَمْدَانِيِّ» وَشُعَرَاءَ أَنْدَلُسِيِّينَ، وَقَصَائِدَ لأَمِيرِ الشُّعَرَاءِ «أَحْمَد شَوْقِي» وَ«حَافِظ إِبْرَاهِيم» وَغَيْرِهِمْ مِنْ كِبَارِ الشُّعَرَاءِ النَّاطِقِينَ بِالْفُصْحَى، كَمَا اخْتَارَتْ قَصَائِدَ لِشُعَرَاءِ الْعَامِيَّةِ الرَّافِضِينَ لِوُجُودِ الْإِنْجِلِيزِ وَالْحُكْمِ الْفَاسِدِ، وَمِنْهُمْ «بِيرَم التُّونُسِيُّ» وَ«أَحْمَد رَامِي» وَغَيْرُهُمْ.



وَبَدَأَ نَجْمُ «أُمِّ كُلْثُومٍ» يَلْمَعُ فِي سَمَاءِ الْقَاهِرَةِ، وَبَدَأَتْ تُغَيِّرُ الذَّوْقَ الْعَامَّ، فَأَثَارَ هَذَا مُنَافِسِيهَا وَحَاوَلُوا النَّيْلَ مِنْهَا، وَلَكِنْ دُونَ جَدْوَى.

وَلَمْ يَمْضِ عَشْرُ سَنَوَاتٍ إِلَّا وَكَانَتِ الْقَاهِرَةُ كُلُّهَا تُرَدِّدُ أَغَانِيَهَا الرَّاقِيَةَ، وَاسْتَطَاعَتْ أَنْ تَمْحُوَ كَثِيرًا مِنْ مَظَاهِرِ الانْحِطَاطِ الَّذِي وَصَلَتْ إِلَيْهِ الْأُغْنِيَّةُ الْعَرَبِيَّةُ.

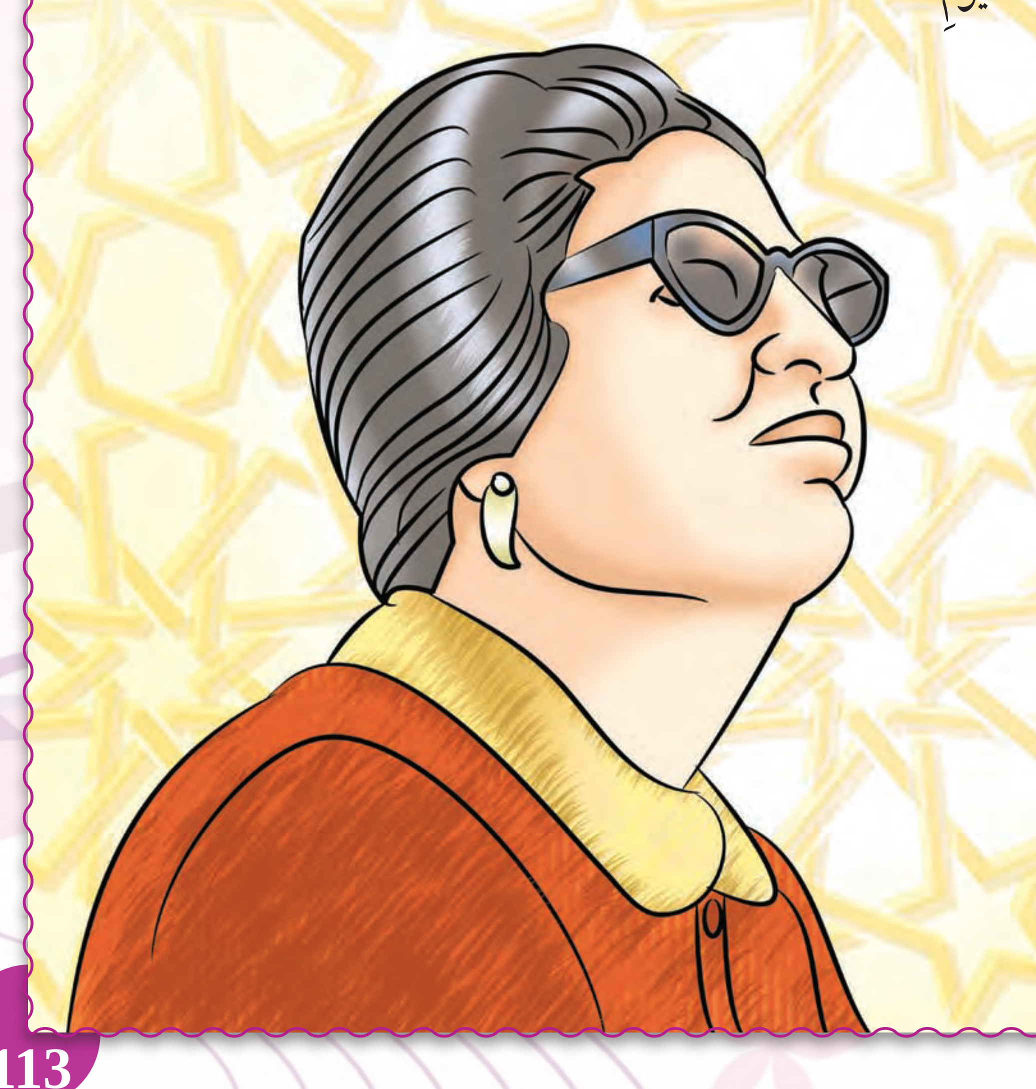
وَجَدَتْ «أُمُّ كُلْثُومٍ» أَنَّ الثَّوْرَةَ تَتَبَنَّى فِكْرَةَ الْقَوْمِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَتَهْتَمُّ بِالْوَحْدَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْقَضَايَا الْعَرَبِيَّةِ، فَسَخَّرَتْ صَوْتَهَا لِخِدْمَةِ هَذِهِ الْقَضَايَا الْعَرَبِيَّةِ، بَلْ إِنَّهَا اسْتَطَاعَتْ أَنْ تُوَحِّدَ الْعَرَبَ جَمِيعًا عَلَى حُبِّ أَغَانِيهَا الرَّاقِيَةِ.

وَقَدْ حَزِنَتْ «أُمُّ كُلْثُومٍ» حُزْنًا شَدِيدًا بَعْدَ هَزِيمَةِ يُونْيُو عَامَ 1967م، وَلَكِنَّهَا سَرْعَانَ مَا غَنَّتِ الْقَصَائِدَ الرَّائِعَةَ الَّتِي تَرْفُضُ الْهَزِيمَةَ وَتَحُضُّ عَلَى الْقِتَالِ. وَانْطَلَقَتْ «أُمُّ كُلْثُومٍ» تُحْيِي حَفَلَاتٍ لِلْمَجْهُودِ الْحَرْبِيِّ، وَهِيَ حَفَلَاتٌ كَانَ كُلُّ عَائِدِهَا مِنَ الْأَمْوَالِ يَذْهَبُ لِلْمُسَاهَمَةِ فِي إِعَادَةِ بِنَاءِ الْجَيْشِ مَرَّةً أُخْرَى.

وَقَدْ قَدَّمَتْ «أُمُّ كُلْثُومٍ» كُلَّ مَا تَمْلِكُهُ مِنْ مُجَوْهَرَاتٍ وَهَدَايَا لِلْحُكُومَةِ الْمِصْرِيَّةِ كَتَبَرُّعٍ مِنْهَا، فَقَلَّدَتْهَا نِسَاءُ الدُّوَلِ الْعَرَبِيَّةِ. وَلَقَدْ أَعْطَتْهَا الْحُكُومَةُ الْمِصْرِيَّةُ جَوَازَ سَفَرٍ «لِسَفِيرٍ فَوْقَ الْعَادَةِ»؛ تَقْدِيرًا لِمَا تَقُومُ بِهِ مِنْ أَجْلِ بِلَادِهَا.

وَلَمْ تَهْدَأْ مَجْهُودَاتُ «أُمِّ كُلْثُومٍ» وَلَا غَيْرَتُهَا عَلَى أَرْضِ بِلَادِهَا إِلَّا بَعْدَ أَنْ رَأَتِ الْجَيْشَ الْمِصْرِيَّ وَهُوَ يَعْبُرُ الْقَنَاةَ وَيَهْزِمُ الْعَدُوَّ الْإِسْرَائِيلِيَّ هَزِيمَةً سَاحِقَةً فِي أُكْتُوبَر 1973م، فَبَادَرَتْ بِالْغِنَاءِ لَهُ؛ لِتُقَوِّيَ عَزِيمَتَهُ.

وَرَحَلَتْ بَعْدَ ذَلِكَ عَنِ الْحَيَاةِ مُخَلِّفَةً وَرَاءَهَا قِصَّةً حَافِلَةً بِالْكِفَاحِ وَالْوَطَنِيَّةِ وَالْغِنَاءِ الْمُلْتَزِمِ الْجَمِيلِ الَّذِي يُسْعِدُ أَبْنَاءَ الْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ حَتَّى الْيَوْمِ.



أَمِينَة رِزْق

(رَاهِبَةُ الْمَسْرَحِ وَالسِّينِمَا)

بَعْـدَ الْعَصْرِ، انْطَلَقَ الْقِطَارُ مُتَهَادِيًا فِي بِدَايَـةِ رِحْلَتِهِ مِنْ «طَنْطَا» إِلَى «الْقَاهِرَةِ»، وَقَدْ جَلَسَتْ فِيهِ فِي غُرْفَةٍ مُسْتَقِلَّةٍ فَتَاتَانِ.. إِحْدَاهُمَا تَبْلُغُ مِنَ الْعُمْرِ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ عَامًا وَالصُّغْرَى سِتَّةَ عَشَرَ عَامًا، فَتَقَدَّمَ عَامِلُ التَّذَاكِرِ وَمِنْ وَرَائِهِ رَجُلٌ مُهَنْدَمُ الثِّيَابِ، وَوَرَاءَهُ حَمَّالُ الْحَقَائِبِ، وَاسْتَأْذَنُوا فِي الدُّخُولِ، وَأَشَارَ عَامِلُ التَّذَاكِرِ لِلرَّجُلِ مُهَنْدَمِ الثِّيَابِ قَائِلًا:

- تَفَضَّلْ يَا سَيِّدِي هُنَا مَقْعَدُكَ.

لَفَـتَ انْتِبَاهَ الْفَتَاتَيْنِ هَذَا الاحْتِرَامُ الْكَبِيـرُ الَّذِي يُبْدِيهِ عَامِلُ الْقِطَارِ وَالْحَمَّالُ لِهَذَا الرَّجُلِ مُهَنْدَمِ الثِّيَابِ، فَنَظَرَتِ الْفَتَاتَانِ لِبَعْضِهِمَا نَظْرَةً، ثُمَّ أَخَذَتَا فِي سَرْدِ أَمْجَادِهِنَّ الْفَنِّيَّةِ بِصَوْتٍ وَاضِحٍ؛ حَتَّى تَصِلَ الرِّسَالَةُ لِهَذَا الرَّجُلِ الْجَالِسِ أَمَامَهُنَّ.

أَبْدَى الرَّجُلُ انْدِهَاشَهُ، وَسَأَلَهُمَا:

- مَنْ أَنْتُمَا؟

فَقَالَتِ الصُّغْرَى:

- أَنَا اسْمِي «أَمِينَة رِزْق»، وَزَمِيلَتِي اسْمُهَا «أَمِينَة مُحَمَّد»، وَهِيَ تَعْمَلُ فِي مَجَالِ الْإِنْتَاجِ السِّـينِمَائِي، أَمَّا أَنَا فَأَعْشَـقُ الْمَسْـرَحَ وَالتَّمْثِيلَ،

وَبَدَأْتُ مَعَ فِرْقَةِ «عَلي الْكَسَّار» كَوَاحِدَةٍ مِنْ أَفْرَادِ الْكُورَالِ الْغِنَائِيِّ.
وَقَدْ أَتَيْتُ إِلَى الْقَاهِرَةِ عَامَ 1918م، وَدَخَلْتُ مَدْرَسَةَ «ضِيَاءِ الشَّرْقِ الابْتِدَائِيَّةَ» بِعَابِدِين، وَعِنْدَمَا قَامَتْ ثَوْرَةُ 1919م كُنْتُ مَعَ الطَّالِبَاتِ اللَّاتِي خَرَجْنَ في مُظَاهَرَاتِ الثَّوْرَةِ، وَشَـارَكْتُ في غِنَاءِ أُغْنِيَّةِ «مِصْرُ وَطَنُنَا» لِـ «سَـعْدِ زَغْلُول» نَفْسِهِ عِنْدَ عَوْدَتِهِ مِنَ الْمَنْفَى، وَمِنْ يَوْمِهَا وَأَنَا أُمَارِسُ فَنَّ الْغِنَاءِ وَالتَّمْثِيلِ أَيْضًا.



وَهُنَا قَالَتْ «أَمِينَة مُحَمَّد»:

- وَمَنْ أَنْتَ يَا سَيِّدِي؟

فَقَالَ الرَّجُلُ مُتَبَاهِيًا:

- أَنَا سِكِرْتِير «يُوسُف بك وَهْبِي»، وَسَوْفَ أُقَدِّمُكُمَا إِلَيْهِ غَدًا لَوْ حَضَرْتُمَا إِلَى الأُسْتُدْيُو أَوْ إِلَى الْمَسْرَحِ.

فِي مَسَاءِ الْيَوْمِ التَّالِي كَانَتْ «أَمِينَة رِزْق» وَ«أَمِينَة مُحَمَّد» قَدْ تَعَرَّفَتَا عَلَى «يُوسُف بك وَهْبِي» الَّذِي أَبْدَى سَعَادَتَهُ بِهَاتَيْنِ الْمَوْهِبَتَيْنِ، وَوَافَقَ عَلَى ضَمِّهِمَا إِلَى فِرْقَةِ رَمْسِيسَ، وَاسْتَمَرَّتْ «أَمِينَة رِزْق» مَعَهُ فِي كُلِّ أَعْمَالِهِ الْمَسْرَحِيَّةِ، وَقَامَتْ بِبُطُولَةِ كُلِّ الْأَفْلَامِ الَّتِي أَخْرَجَهَا «يُوسُف وَهْبِي»، بَيْنَمَا انْزَوَتْ «أَمِينَة مُحَمَّد» فِي الظِّلِّ، بَعْدَ أَنْ قَامَتْ بِإِنْتَاجِ أَوَّلِ فِيلْمٍ لَهَا وَهُوَ فِيلْم «تِيتَا وُونج» عَامَ 1937م.

اسْتَمَرَّتْ «أَمِينَة رِزْق» بَطَلَةً لِعَشَرَاتِ الْمُسَلْسَلَاتِ؛ حَتَّى حَصَلَتْ عَلَى جَائِزَةِ أَحْسَنِ مُمَثِّلَةٍ مِصْرِيَّةٍ عَامَ 1966م.

وَأَخْلَصَتْ «أَمِينَة رِزْق» لِمِهْنَةِ التَّمْثِيلِ، وَأَصَرَّتْ عَلَى أَنْ تُقَدِّمَ فَنًّا رَاقِيًا بَعِيدًا عَنْ أَيِّ مَنَاظِرَ لِلْإِغْرَاءِ أَوِ الْإِسْفَافِ؛ فَقَدَّمَتْ نَمُوذَجًا مُحْتَرَمًا يَدْخُلُ جَمِيعَ الْبُيُوتِ بِلَا حَرَجٍ، وَمَالَتْ فِي أَدْوَارِهَا إِلَى دَوْرِ الْأُمِّ حَتَّى اشْتُهِرَتْ بِهِ، وَلُقِّبَتْ بِأُمِّ السِّينِمَا الْمِصْرِيَّةِ، وَكَرَّمَتْهَا لِيبْيَا عَامَ 1991م بِاعْتِبَارِهَا رَائِدَةً لِلْفَنِّ فِي الْعَالَمِ الْعَرَبِيِّ، وَاخْتِيرَتْ عُضْوًا

بِالْمَجْلِسِ الْأَعْلَى لِلثَّقَافَةِ، وَاخْتَارَهَا الرَّئِيسُ عُضْوًا بِمَجْلِسِ الشُّورَى؛ لِتُصْبِحَ أَوَّلَ فَنَّانَةٍ مِصْرِيَّةٍ تَدْخُلُ مَجْلِسَ الشُّورَى .

وَظَلَّتْ «أَمِينَة رِزْق» مُخْلِصَةً في فَنِّهَا، مُلْتَزِمَةً بِمَوَاعِيدِهَا في الْأَعْمَالِ الْفَنِّيَّةِ، حَتَّى ضَرَبَ الْفَنَّانُونَ بِهَا الْمَثَلَ في الانْضِبَاطِ. وَعَمِلَتْ مَعَ كُلِّ الْمُخْرِجِينَ، وَأَسْنَدُوا لَهَا دَوْرَ الْبُطُولَةِ بِدَايَةً مِنْ فِيلْمِهَا الْأَوَّلِ «أَوْلَادُ الذَّوَاتِ» عَامَ 1932م حَتَّى وَافَتْهَا الْمَنِيَّةُ في عَامِ 2003م.

وَظَلَّتْ حَتَّى عَامِهَا الْأَخِيرِ تَعْمَلُ، وَكَانَ آخِرُ أَعْمَالِهَا عَلَى مَسْرَحِ الْهَنَاجِرِ بِالْقَاهِرَةِ الَّذِي يَتَبَنَّى أَفْكَارَ الشَّبَابِ الْمَسْرَحِيَّةَ، وَكَأَنَّهَا تَأْخُذُ بِأَيْدِيهِمْ إِلَى عَالَمِ الْفَنِّ الْجَمِيلِ الرَّاقِي.



جَمِيلَةُ بُوحْرِيد

(زَهْرَةُ الْجَزَائِرِ)

عِنْدَمَا أَقْلَعَتِ الطَّائِرَةُ مِنْ مَطَارِ بَارِيس، أَسْنَدَ الْمُحَامِي الْفَرَنْسِي «جَاك فِيرْجِس» رَأْسَهُ عَلَى الْمَقْعَدِ بِالطَّائِرَةِ سَعِيدًا بِمَا سَيَنَالُهُ مِنْ تَكْرِيمٍ فِي الْقَاهِرَةِ.

تَنَاوَلَتْ فَتَاةٌ شَابَّةٌ بِجِوَارِهِ إِحْدَى الْمَجَلَّاتِ النَّاطِقَةِ بِالْعَرَبِيَّةِ، وَفِي إِحْدَى صَفَحَاتِهَا الدَّاخِلِيَّةِ وَجَدَ صُورَتَهُ مَنْشُورَةً بِشَكْلٍ كَبِيرٍ مَعَ عُنْوَانٍ يَقُولُ « الْقَاهِرَةُ تُكَرِّمُ مُحَامِيَ الْإِرْهَابِ».. صَدَمَهُ الْعُنْوَانُ.. اسْتَرْسَلَ فِي قِرَاءَةِ الْخَبَرِ الصَّحَفِيِّ.. «سَيُكَرِّمُ مِهْرَجَانُ الْقَاهِرَةِ السِّينِمَائِيُّ الدَّوْلِيُّ الْمُحَامِيَ الْفَرَنْسِيَّ «جَاك فِيرْجِس» صَاحِبَ الدِّفَاعِ الْقَوِيِّ عَنِ الْإِرْهَابِيَّةِ الْجَزَائِرِيَّةِ «جَمِيلَة بُوحْرِيد» حَتَّى تَمَّ إِلْغَاءُ حُكْمِ الْإِعْدَامِ، وَأُفْرِجَ عَنْهَا».

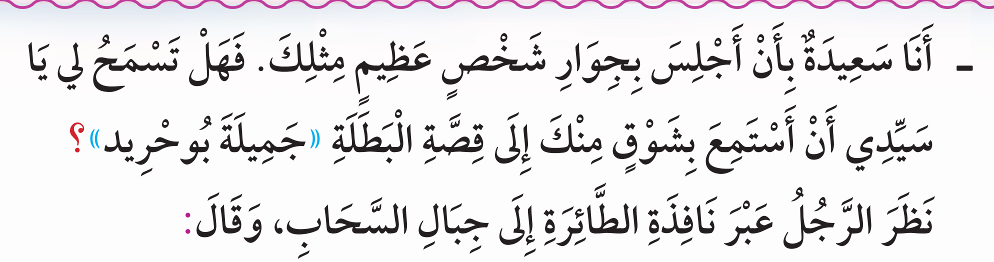
لَمَحَتِ الْفَتَاةُ صُورَتَهُ فِي الْجَرِيدَةِ بَعْدَ أَنْ قَرَأَتِ الْعُنْوَانَ، فَقَالَتْ لَهُ:

- لِمَاذَا وَصَفَتْكَ الْجَرِيدَةُ بِهَذَا الْوَصْفِ يَا سَيِّدِي؟

فَقَالَ لَهَا «فِيرْجِس»:

- لِأَنَّنِي مُحَامِي «جَمِيلَةَ بُوحْرِيد».

دُهِشَتِ الْفَتَاةُ وَقَالَتْ:



- أَنَا سَعِيدَةٌ بِأَنْ أَجْلِسَ بِجِوَارِ شَخْصٍ عَظِيمٍ مِثْلِكَ. فَهَلْ تَسْمَحُ لِي يَا سَيِّدِي أَنْ أَسْتَمِعَ بِشَوْقٍ مِنْكَ إِلَى قِصَّةِ الْبَطَلَةِ «جَمِيلَةَ بُوحْرِيد»؟

نَظَرَ الرَّجُلُ عَبْرَ نَافِذَةِ الطَّائِرَةِ إِلَى جِبَالِ السَّحَابِ، وَقَالَ:

- تَعَرَّفْتُ إِلَى «جَمِيلَةَ بُوحْرِيد» فِي فَرَنْسَا بَعْدَ أَنِ انْسَحَبَ كَثِيرٌ مِنَ الْمُحَامِينَ الْمُدَافِعِينَ عَنْهَا؛ احْتِجَاجًا عَلَى الظُّلْمِ الْوَاقِعِ عَلَيْهَا.. كَانَ جَسَدُهَا عِنْدَمَا رَأَيْتُهُ مُمَزَّقًا هَزِيلًا.

تَرَكُونِي مَعَهَا سَــاعَةً كَامِلَةً اسْتَمَعْتُ فِيهَا لِلْأَيَّامِ السَّوْدَاءِ الَّتِي قَضَتْهَا فِي تَعْذِيبٍ وَحْشِيٍّ مِنْ ضَرْبٍ وَصَعْقٍ بِالْكَهْرَبَاءِ وَحَرْقٍ، بَعْدَ أَنْ أَغْرَوْهَا بِمُكَافَأَةٍ مَالِيَّةٍ كَبِيرَةٍ مِقْدَارُهَا مِئَةُ أَلْفِ فَرَنْكٍ فَرَنْسِيٍّ؛ كَيْ تَعْتَرِفَ لَهُمْ عَنْ مَكَانِ مَنْدُوبِ جَبْهَةِ التَّحْرِيرِ الْجَزَائِرِيَّةِ الَّتِي تُنَاضِلُ ضِدَّ الاحْتِلَالِ..

بَــدَأَتِ الْمُحَاكَمَةُ غَيْرُ الْعَادِلَةِ، وَوَجَّهَتْ لَهَــا الْمَحْكَمَةُ تُهَمَ إِحْرَازِ مُفَرْقَعَاتٍ، وَالشُّرُوعِ فِي قَتْلِ الْفَرَنْسِيِّينَ فِي الْجَزَائِرِ، وَالانْضِمَامِ لِجَمَاعَةٍ مَحْظُورَةٍ مِنَ الْقَتَلَةِ.

وَعِنْدَمَا شَعَرَتْ «جَمِيلَةُ» أَنَّ الْمُحَاكَمَةَ ظَالِمَةٌ، وَقَفَتْ فِي الْمَحْكَمَةِ لِتَقُولَ لِلْقَاضِي:

- أَيُّهَا السَّادَةُ: إِنَّنِي أَعْلَمُ أَنَّكُمْ سَتَحْكُمُونَ عَلَيَّ بِالْإِعْدَامِ؛ لِأَنَّ رُؤَسَاءَكُمْ يَتَشَــوَّقُونَ لِرُؤْيَةِ الدِّمَاءِ.. كُلُّ الْحَقِيقَــةِ أَنَّنِي أُحِبُّ بَلَدِي وَأُرِيدُ لَهَا الْحُرِّيَّةَ مِنَ الْمُحْتَلِّ، وَلَنْ تَنْجَحُوا فِي مَنْعِ الْجَزَائِرِ مِنَ الْحُصُولِ عَلَى اسْتِقْلَالِهَا.

سَاعَتَهَا شَعَرْتُ بِمَزِيجٍ مِنَ الْإِشْفَاقِ وَالْإِعْجَابِ بِقُوَّةِ هَذِهِ الْفَتَاةِ ذَاتِ الاثْنَيْنِ وَالْعِشْرِينَ عَامًا.

صَاحَ الْقَاضِي مُعْلِنًا الْحُكْمَ بِالْإِعْدَامِ عَلَى «جَمِيلَةَ بُوحَرِيد».

طُفْتُ بِلَادَ الْعَالَمِ أُنَاشِــدُ جُمُوعَ الْأَحْرَارِ مِــنْ مُحَامِينَ وَصَحَفِيِّينَ وَسِيَاسِيِّينَ أَنْ يَكْتُبُوا آلَافَ الْبَرْقِيَّاتِ لِلسِّــكِرْتِيرِ الْعَامِّ لِلْأُمَمِ الْمُتَّحِدَةِ

«هُمُوشُــولْد». وَبِالْفِعْلِ وَصَلَ إِلَيْهِ طُوفَانٌ مِنَ الْبَرْقِيَّاتِ مِنْ كُلِّ أَنْحَاءِ الْعَالَمِ بِعُنْوَانِ «أَنْقِذْ جَمِيلَةَ»!

تَمَّ تَخْفِيفُ الْحُكْمِ عَنْهَا إِلَى السَّجْنِ فَقَطْ بَدَلًا مِنَ الْإِعْدَامِ؛ اسْتِجَابَةً لِلضَّغْــطِ الْعَالَمِيِّ، ثُمَّ أُفْرِجَ عَنْهَا بَعْدَ ثَلَاثِ سَــنَوَاتٍ بِمُوجِبِ اتِّفَاقِيَّةِ «إِيفْيَان». وَعَادَتْ إِلَى الْجَزَائِرِ، وَعُدْتُ مَعَهَا، وَطَلَبْتُ يَدَهَا لِلزَّوَاجِ بَعْدَ أَنْ أَشْهَرْتُ إِسْلَامِي، وَتَزَوَّجْنَا.

وَتَحَرَّرَتِ الْجَزَائِرُ بِفِعْلِ نِضَالِ الْمِلْيُونِ شَــهِيدٍ وَشَهِيدَةٍ مِنْ أَبْنَائِهَا، وَبِسَبَبِ جُرْأَةِ «جَمِيلَةَ» وَغَيْرِهَا مِنْ بَنَاتِ الْجَزَائِرِ.



سَنَاء مِحِيدْلي

(عَرُوسُ الْجَنُوبِ اللُّبْنَانِيِّ)

عِنْدَمَا جَلَسَتْ أُسْرَةُ «يُوسُف تَوْفِيق مِحِيدْلي» عَلَى الْغَدَاءِ، لَاحَظَ الْأَبُ أَنَّ ابْنَتَهُ الْكُبْرَى «سَنَاءَ» لَمْ تَجْلِسْ مَعَهُ، فَقَالَ لِأَخِيهَا «هَيْثَمَ»:

- اذْهَبْ يَا «هَيْثَمُ» إِلَى الْمَحَلِّ الَّذِي تَعْمَلُ بِهِ أُخْتُكَ «سَنَاءُ» فِي حَيِّ «الْمُصَيْطِبَةِ» وَانْظُرْ مَاذَا حَدَثَ، لِمَاذَا تَتَأَخَّرُ «سَنَاءُ» فِي الْعَمَلِ؟

عِنْدَمَا وَصَلَ «هَيْثَمُ» إِلَى الْمَحَلِّ، وَجَدَ صَاحِبَ الْمَحَلِّ هُنَاكَ، فَسَأَلَهُ عَنْ «سَنَاءَ»، فَأَخْبَرَهُ بِأَنَّهَا لَمْ تَأْتِ إِلَى الْمَحَلِّ الْيَوْمَ، بَلْ إِنَّهَا كَثِيرَةُ الْغِيَابِ وَأَحْوَالُهَا غَامِضَةٌ، وَلَمْ تَعُدْ نَشِيطَةً كَمَا كَانَتْ مِنْ قَبْلُ.

هُنَا تَدَخَّلَتْ فَتَاةٌ أُخْرَى تَعْمَلُ فِي الْمَحَلِّ فِي الْفَتْرَةِ الْمَسَائِيَّةِ قَائِلَةً:

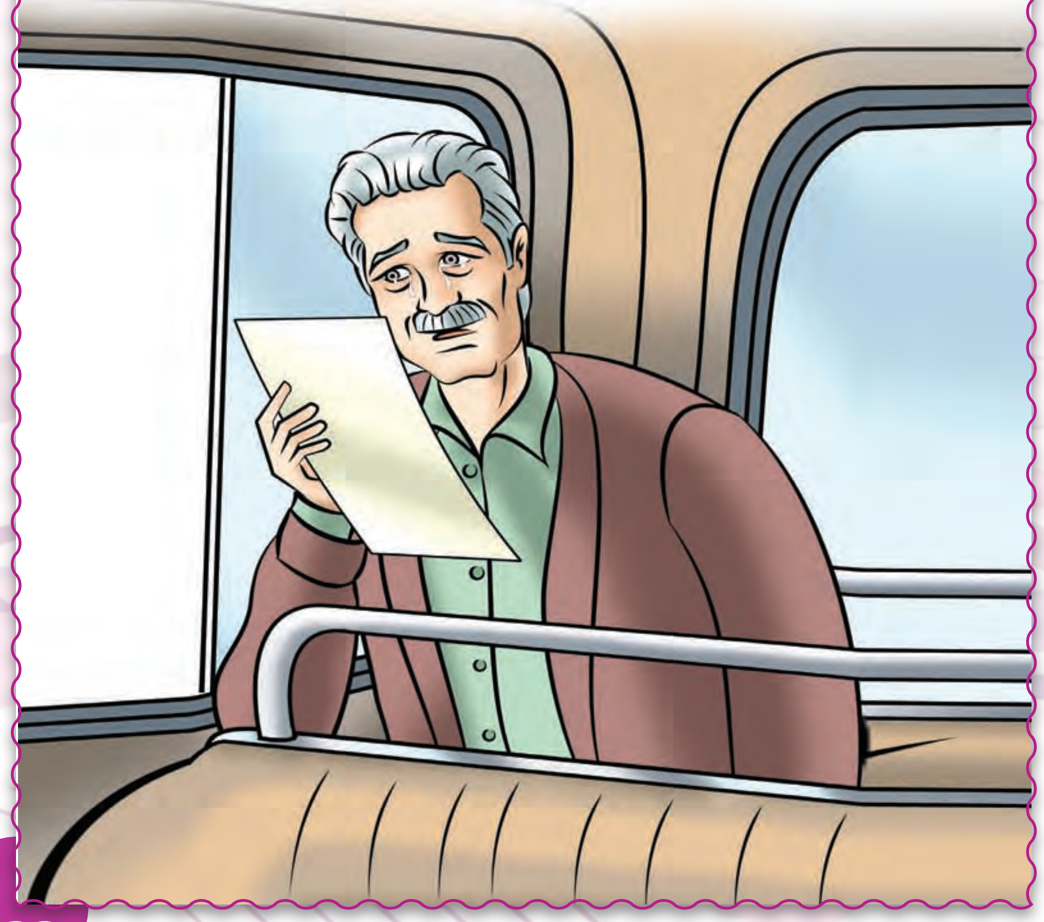
- أُخْتُكَ يَا «هَيْثَمُ» أَصْبَحَتْ تَرْكَبُ سَيَّارَةً خَاصَّةً!!

هُنَا انْدَهَشَ «هَيْثَمُ»، وَخَرَجَ مُسْرِعًا غَاضِبًا مِنَ الْمَحَلِّ، وَعَادَ لِأَبِيهِ فِي الْبَيْتِ، فَوَجَدَهُ قَلِقًا عَلَى ابْنَتِهِ الَّتِي لَمْ تَأْتِ بَعْدُ، وَعِنْدَمَا عَلِمَ الْأَبُ بِغِيَابِ ابْنَتِهِ عَنِ الْعَمَلِ، وَبِتَعَلُّمِهَا قِيَادَةَ السَّيَّارَةِ، ثَارَ الدَّمُ فِي عُرُوقِهِ، فَخَرَجَ مُسْرِعًا مِنَ الْبَيْتِ لِيَبْحَثَ عَنْهَا.

كَانَ هُنَاكَ شَابٌّ فِي الشَّارِعِ يُوَزِّعُ مَنْشُورَاتٍ عَلَى رُكَّابِ الْحَافِلَةِ. حَرَّكَتْ كَلِمَاتُ الرُّكَّابِ عَنِ الْمَنْشُورِ الْأَبَ، فَنَظَرَ إِلَى الْمَنْشُورِ الَّذِي

فِي يَدِهِ لِيَقْرَأَهُ وَسَارَتْ عَيْنَاهُ مَعَ السُّطُورِ..

«فِي السَّاعَةِ الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ صَبَاحًا مِنْ يَوْمِ الثُّلَاثَاءِ 4 سِبْتَمْبر 1985م قَامَتْ إِحْدَى مُنَاضِلَاتِنَا الرَّفِيقَةُ «سَنَاء محيدلي» بِعَمَلِيَّةٍ اسْتِشْهَادِيَّةٍ اسْتَهْدَفَتْ تَجَمُّعًا لِقُوَّاتِ الْعَدُوِّ عَلَى طَرِيقِ «بَاتر جزين»، وَاقْتَحَمَتِ الْقُوَّةَ الْعَسْكَرِيَّةَ بِسَيَّارَةٍ مُجَهَّزَةٍ بِمِئَتَيْ كِيلُو مِنْ مَادَّةِ t.n.t شَدِيدَةِ الانْفِجَارِ. وَقَدْ أَوْقَعَتِ الْعَمَلِيَّةُ 50 قَتِيلًا وَجَرِيحًا فِي صُفُوفِ الْعَدُوِّ، وَتَسَبَّبَتْ فِي إِعْطَابِ وَإِحْرَاقِ عَدَدٍ مِنَ الدَّبَّابَاتِ وَالْآلِيَّاتِ لِلْعَدُوِّ».



تحَوَّلَـتِ الدُّمُوعُ فِي عَيْنَيِ الْأَبِ «يُوسُـفَ تَوْفِيق محيدلي» إِلَى بُكَاءٍ مَسْمُوعٍ، ثُمَّ صَاحَ مُنْفَجِرًا:

ـ ابْنَتِي «سَنَاءُ»! إِنَّهَا ابْنَتِي.

وَاضْطَرَبَ الرَّجُلُ بَيْنَ ضَحِكٍ وَبُكَاءٍ مَسْمُوعَيْنِ، وَنَزَلَ مِنَ السَّيَّارَةِ وَاسْتَقَلَّ سَيَّارَةً أُخْرَى إِلَى بَيْتِهِ. وَدَخَلَ الْبَيْتَ مُسْرِعًا صَائِحًا:

ـ افْتَحُوا التِّلِيفِزْيُونَ، افْتَحِ التِّلِيفِزْيُونَ يَا «هَيْثَمُ»!

كَانَتِ ابْنَتُهُ تَظْهَرُ عَلَى الشَّاشَـةِ، تَرْتَدِي مَلَابِـسَ عَرُوسٍ كَامِلَةً. فِي الْبِدَايَةِ تَصَوَّرَ أَنَّهُ يَتَوَهَّمُ ذَلِكَ مِنْ شِدَّةِ حُزْنِهِ..

جَاءَ صَوْتُ «سَنَاءَ» سَعِيدًا فَرِحًا:

«أَحِبَّائِي.. إِنَّ الْحَيَـاةَ وَقْفَةُ عِزٍّ فَقَطْ، أَنَا لَمْ أَمُـتْ، بَلْ حَيَّةٌ بَيْنَكُمْ، أُغَنِّي وَأَرْقُصُ، وأُحَقِّقُ آمَالِي. كَمْ أَنَا سَعِيدَةٌ بِهَذِهِ الشَّهَادَةِ الَّتِي قَدَّمْتُهَا. أَرْجُوكُمْ لَا تَبْكُونِي، لَا تَحْزَنُوا عَلَيَّ، بَـلِ افْرَحُوا وَاضْحَكُوا، أَنَا الْآنَ مَزْرُوعَةٌ فِي أَرْضِ الْجَنُوبِ اللُّبْنَانِيِّ أَسْقِيهَا مِنْ دَمِي وَحُبِّي لَهَا..

لا تَغْضَـبْ مِنِّي يَا أَبِي، يَا أُمِّي، يَا أُسْـرَتِي؛ لِأَنِّي خَرَجْتُ مِنَ الْبَيْتِ دُونَ إِعْلَامِكُمْ، أَنَا لَمْ أَذْهَبْ لِكَيْ أَتَزَوَّجَ أَوْ أَعِيشَ مَعَ أَيِّ شَخْصٍ، بَلْ ذَهَبْتُ لِلشَّهَادَةِ الشَّرِيفَةِ الْبَاسِـلَةِ السَّعِيدَةِ مُرْتَدِيَةً زِيَّ الْعَرُوسِ؛ لِأَنَّنِي سَأَتَزَوَّجُ الْوَطَنَ وَالْحُرِّيَّةَ، فَسَمُّونِي «عَرُوسَ الْجَنُوبِ»!».

مَا إِنِ انْتَهَى بَيَانُ «سَـنَاءَ» عَلَى الشَّاشَةِ، حَتَّى أَقْبَلَتْ جَارَاتُ الْأُسْرَةِ وَجِيرَانُهَا يُهَنِّئُونَ الْأُسْـرَةَ بِزِفَافِ «سَـنَاءَ» لِتُرَابِ الْوَطَنِ بِالزَّغَارِيدِ، وَيُقَدِّمُونَ كَلِمَاتِ التَّحِيَّةِ لِلْأَبِ الَّذِي رَبَّى ابْنَتَهُ عَلَى حُبِّ الْوَطَنِ.



أَسْئِلَةٌ عَامَّةٌ عَلَى الْكِتَابِ

س1: كَيْفَ وَاجَهَتْ «آسِيَا بِنْتُ مُزَاحِمٍ» طُغْيَانَ وَجَبَرُوتَ «فِرْعَوْنَ»؟ وَلِمَاذَا قَتَلَهَا «فِرْعَوْنُ»؟

س2: هَلْ صَدَّقَتْ «أُمُّ مُوسَى» بِوَعْدِ اللهِ لَهَا؟ وَعَلَامَ يَدُلُّ ذَلِكَ؟ وَكَيْفَ تَحَقَّقَ وَعْدُ اللهِ لَهَا؟

س3: مَنِ الَّذِي كَفَلَ «مَرْيَمَ» عَلَيْهَا السَّلَامُ؟ وَلِمَاذَا كَانَتِ الدَّهْشَةُ تَعْتَرِيهِ كُلَّمَا ذَهَبَ إِلَيْهَا؟

س4: مَاذَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ السَّيِّدَةِ «خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ»؟ وَمَاذَا نَفْهَمُ مِنْ ذَلِكَ؟

س5: لِمَاذَا كَانَتْ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ «عَائِشَةُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ» مُعَلِّمَةَ الْأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ؟ وَمَا مَكَانَتُهَا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟

س6: مَا أَهَمُّ الْمَوَاقِفِ الَّتِي ظَهَرَتْ فِيهَا حِكْمَةُ «أُمِّ سَلَمَةَ»؟ وَبِمَ أَشَارَتْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ؟

س7: مَتَى دَافَعَتْ «نَسِيبَةُ بِنْتُ كَعْبٍ» عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟ وَمَاذَا نَتَعَلَّمُ مِنْهَا؟

س8: مَاذَا تَعْرِفُ عَنْ شَجَاعَةِ «أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ»؟ أُذْكُرْ مَوْقِفًا وَاحِدًا بِالتَّفْصِيلِ.

س9: كَيْفَ كَانَ الطِّفْلُ الرَّضِيعُ «مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ» خَيْرًا وَبَرَكَةً عَلَى «حَلِيمَةَ السَّعْدِيَّةِ» وَأَهْلِهَا؟

س10: لِمَاذَا شَكَرَ الْقَائِدُ «خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ» «خَوْلَةَ بِنْتَ الأَزْوَرِ»؟ وَهَلْ تَسْتَحِقُّ هَذَا الشُّكْرَ؟ وَلِمَاذَا؟

س11: أَيْنَ عَاشَتْ «رَابِعَةُ الْعَدَوِيَّةُ»؟ وَكَيْفَ كَانَتْ حَيَاتُهَا؟ وَمَاذَا نَتَعَلَّمُ مِنْ سِيرَتِهَا؟

س12: مَاذَا فَعَلَتِ الْمَلِكَةُ «إِيَاح حُتُب» عِنْدَمَا عَلِمَتْ بِنَبَإِ اسْتِشْهَادِ ابْنِهَا «كاموس»؟ وَعَلَامَ يَدُلُّ ذَلِكَ؟

س13: مَا مُدَّةُ حُكْمِ الْمَلِكَةِ «حَتْشِبْسُوت»؟ وَلِمَاذَا كَانَتْ هِيَ مَلِكَةَ الْبِنَاءِ وَالتَّشْيِيدِ؟

س14: مَاذَا تَعْرِفُ عَنْ «نِفْرتِيتِي» الدَّاعِيَةِ لِعِبَادَةِ إِلَهٍ وَاحِدٍ أَحَدٍ؟ وَهَلْ نَجَحَتْ دَعْوَتُهَا؟ وَلِمَاذَا؟

س15: كَيْفَ حَرَّرَتْ «بِلْقِيسُ» مَمْلَكَتَهَا مِنَ الْمُحْتَلِّ الغَاصِبِ؟

س16: مِمَّ حَذَّرَتْ «زَرْقَاءُ الْيَمَامَةِ» قَوْمَهَا؟ وَهَلِ اسْتَجَابُوا لَهَا؟ وَلِمَاذَا؟

س17: بِمَنِ اسْتَجَارَتْ «هِنْدُ بِنْتُ النُّعْمَانِ» بَعْدَ مَقْتَلِ أَبِيهَا؟ وَهَلْ أَجَارُوهَا؟ وَعَلَامَ يَدُلُّ ذَلِكَ؟

س18: مَاذَا فَعَلَتِ «الْخَنْسَاءُ» عِنْدَمَا عَلِمَتْ بِاسْتِشْهَادِ أَبْنَائِهَا الأَرْبَعَةِ فِي مَعْرَكَةِ الْقَادِسِيَّةِ؟ وَعَلَامَ يَدُلُّ ذَلِكَ؟

س19: كَيْفَ أَدَارَتْ «شَجَرَةُ الدُّرِّ» الْمَعْرَكَةَ مَعَ الصَّلِيبِيِّينَ بَعْدَ مَوْتِ «الْمَلِكِ الصَّالِحِ»؟ وَلِمَاذَا فَعَلَتْ ذَلِكَ؟

س20: لِمَاذَا غَضِبَ «أُورليان» مَلِكُ الرُّومِ مِنَ الْمَلِكَةِ «زِنُوبيا»؟ وَهَلْ خَضَعَتْ لَهُ «زِنُوبيا»؟ وَمَاذَا فَعَلَ مَعَهَا؟

س21: مَا الْقَضِيَّةُ الأَسَاسِيَّةُ الَّتِي كَانَتْ تَشْغَلُ بَالَ «مَلَك حِفْني نَاصِف»؟ وَلِمَاذَا لُقِّبَتْ بِـ«بَاحِثَةِ الْبَادِيَةِ»؟

س22: مَا أَهَمُّ الآثَارِ الأَدَبِيَّةِ وَالْفِكْرِيَّةِ الَّتِي تَرَكَتْهَا «عَائِشَةُ التَّيْمُورِيَّةُ»؟ وَمَا دَلَالَةُ ذَلِكَ؟

س23: كَيْفَ أَثَّرَ جَدُّ «عَائِشَةَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ» فِي مَسِيرَتِهَا الْعِلْمِيَّةِ وَالثَّقَافِيَّةِ؟

س24: هَلْ تَعْرِفُ اسْمَ «صَفِيَّةَ زَغْلُول» الْحَقِيقِيَّ؟ وَلِمَاذَا لُقِّبَتْ بِـ«أُمِّ الْمِصْرِيِّينَ»؟

س25: فِي رَأْيِكَ مَنِ الَّذِي قَتَلَ عَالِمَةَ الذَّرَّةِ الْمِصْرِيَّةِ «سَمِيرَة مُوسَى»؟ وَلِمَاذَا؟

س26: مَنِ الَّذِي وَجَّهَ «سُهير القَلَمَاوِي» إِلَى دِرَاسَةِ الأَدَبِ العَرَبِيِّ وَقَدْ كَانَتْ رَغْبَتُهَا أَنْ تُصْبِحَ طَبِيبَةً؟ وَلِمَاذَا فَعَلَ ذَلِكَ؟

س27: كَيْفَ أَثَّرَتْ «أُمُّ كُلْثُومٍ» فِي الذَّوْقِ الْعَامِّ الْمِصْرِيِّ وَالْعَرَبِيِّ فِي مَجَالِ الْأُغْنِيَّةِ؟

س28: مَا الرِّسَالَةُ الَّتِي حَرَصَتْ عَلَيْهَا «أَمِينَةُ رِزْق» طَوَالَ رِحْلَتِهَا الْفَنِّيَّةِ؟ وَمَا رَأْيُكَ فِيهَا؟

س29: مَا التُّهْمَةُ الَّتِي وَجَّهَهَا الْفَرَنْسِيُّونَ لِـ«جَمِيلَةَ بُوحْرِيد»؟ وَمَا رَأْيُكَ فِيهَا؟

س30: مَاذَا تَعْرِفُ عَنْ «سَنَاء محيدلي»؟ وَمَا أَثَرُ الْعَمَلِيَّةِ الاسْتِشْهَادِيَّةِ الَّتِي قَامَتْ بِهَا؟